مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

وعي
نحو ثقافة مؤصّلة

علم الاستغراب

مجلة علميَّة محكَّمة تصدر سنويًا عن مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث.
تعنى بجميع شؤون الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثر

مواضيع العدد:

مراكز البحث في إسرائيل وتأثيرها في دائرة صنع القرار
د.صالح نعامي

نحو منهجية مقترحة لعلم الاستغارب
د. نايف بن نهار

مدرسة التفكيك
أ.د.عز الدين معميش

قراءة الغرب من منظور مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي
- مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري نموذجا-
أ.د.عبد القادر بخوش

استغراب بلا اغتراب ولا غربفوبيا
أ.د.عدنان المقراني

العدد الأول

مجلة علم الاستغراب

مجلة علمية محكمة تَصدر عن "مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث"

تعنى بجميع شؤون الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثر

مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث

- البريد الالكتروني : wa3efoundation@hotmail.com
- الموقع الالكتروني : www.wa3efoundation.net

مركز نماء للبحوث والدراسات

- البريد الالكتروني : info@nama-center.com
- الموقع الالكتروني : www.nama-center.com

مجلة علم الاستغراب

- المشرف العام : د. نايف بن نهار
  رئيس مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث
  والعميد المساعد لشؤون البحث والدراسات العليا بجامعة قطر

- رئيس التحرير: أ.د عبد القادر بخوش
- لجنة التحرير :
  أ.د عز الدين معميش
  أ.د محمد أمزيان
  أ.د ثناء الندوي
  د. أحمد زايد

- المراجعة والإخراج الفني: خالد التايدي
- البريد الالكتروني للمجلة: wa3efoundation@hotmail.com
- الموقع الالكتروني : www.wa3efoundation.net

فهرس المحتويات

المستهل

- كلمة المشرف العام — 7
  د.نايف بن نهار
- كلمة رئيس التحرير — 13
  أ.د عبد القادر بخوش

في البنية النظرية

- نحو منهجية مقترحة لعلم الاستغراب — 18
  د.نايف بن نهار

في البنية العملية

- مراكز الأبحاث في إسرائيل وتأثيرها على دائرة صنع القرار — 47
  د. صالح النعامي

مقاربات

- قراءة الغرب من منظور مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي — 90
  مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري نموذجا
  أ.د عبد القادر بخوش
- مدرسة التفكيك — 114
  أ.د عز الدين معميش

مقالات

- استغراب بلا اغتراب ولا غَرْبَـفُوبيا — 136
  أ.د عدنان المقراني

المستهل

كلمة المشرف العام

د. نايف بن نهار
العميد المساعد لشؤون البحث والدراسات العليا في جامعة قطر

إذا كان الأستاذ نجاة الله صديقي قد قال: إن مشروع الصيرفة الإسلامية هو أكبر مشروع في الإسلام في النصف الثاني من القرن العشرين،[1] فإنني لستُ مبالغًا إن قلتُ: إن مشروع **علم الاستغراب** هو أهم مشروع إسلامي في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين، وإن كان من المفترض أن يكون هو أهم مشروع منذ بدء الاحتكاك المكثف مع الحضارة الغربية.

لم يعد الغربُ اليوم كما كان في عهد الكندي والفارابي وابن سينا وابن مسكويه وابن باجه وابن طفيل وابن رشد ومن تلاهم؛ محضَ تراثٍ فلسفي من أحاديث أفلاطون وأرسطو وتوظيفاتها العقلانية عند أفلوطين وأصحابه، أو توظيفات كنسيَّة عند أوغسطين ومن بعده توما الأكويني. ولم يعد العقل الغربي عقلاً طفوليًا ــ بالمعيار الإسلامي ــ أقصى أمانيه أن يعرف المراد الديني بلا وساطة كنسيّة، كما هو الحال في بدء عصر النهضة عند مارتن لوثر ومن تلاه. بل ولم يعد الغرب فكرًا ابتدائيًا تجاوزه العقل الإسلامي القديم والعقل الغربي الحديث، كما تقرر عند شيوخ الفلسفة الحديثة من بيكون وديكارت وإسبينوزا. فهذه القضايا كلها تفقد أصالتها بمنطق العقل الإسلامي منذ ضحى الإسلام، وتفقد راهنيّتها وفعاليتها في العقل الغربي منذ ولوجه بوابة الحداثة وما بعدها. إذن كل ما مضى لا يشكّل رافدًا معرفيًا يجبرنا على شدِّ الرحال وتكبّد وعثاء السفر طمعًا بمكاسب لا نظير لها، أو يجبرنا على إعلان حالة الطوارئ في الدائرة الإسلامية خوفًا من خطره، إلا بالقدر الذي يُعاد توظيفه خطأً في نظامنا المعرفي.

إن مشروع علم الاستغراب هو أهم مشروع إسلامي في النصف الأول من القرن الحادي والعشرين.

(١) صديقي، محمد نجاة الله، **بحوث في النظام المصرفي الإسلامي** (جدة، مركز النشر العلمي جامعة الملك عبد العزيز، ط١، ٢٠٠٣م)

لم يعد ما مضى يشكّل غاية إقدام العقل الغربي، وإنَّما الغربُ اليوم منظومة معرفية هائلة مترامية الأطراف في جميع المجالات الإنسانية والاجتماعية والتطبيقية. فالرائي في أي فرع من فروع المعرفة الإنسانية الحديثة حيث ما ولّى عينيه؛ سيجد أنَّ أصول ذلك الفرع وقواعده ونظرياته ومدارسه ومذاهبه كلها مستقرَّة في العقل الأوروبي، سواء في الاقتصاد أو العلاقات الدولية أو العلوم السياسية أو الفلسفة أو الاجتماع أو علم النفس أو علم الإنسان (الأنثروبولوجيا). وحتى العلوم التطبيقية التي ربما تأسس بعضها في العقل الإسلامي، فإنها انتهت بوصفها علومًا متطورة ومستقرة في الغرب، لا هنا. هذه المنظومة المعرفية الهائلة قد نختلف في بعض منطلقاتها أو مخرجاتها أو مناهجها، لكننا لا يمكن أبدًا أن نصدفَ عنها غاضين الطرف إما جهلاً أو مكابرةً، هذا الخيار محال حضاريًا.

قبل نحو ثلاثمئة سنة، قدّم مسؤول عثماني يُدعى «إبراهيم متفرقة» تقريرًا يطرح فيه التساؤل الآتي: **لماذا بدأت الأمم المسيحية بالتقدم والسيطرة على الدول الإسلامية؟**. يريد هذا المسؤول أن يستنفر العثمانيين للإجابة عن هذا التساؤل، وليس في ذهنه من التقدم الغربي سوى التقدم العسكري، فكيف لو بُعث في عصرنا اليوم ليرى هيمنةً غربية كليَّة على العالم الإسلامي في جميع مجالات الحياة؟، تلك الهيمنة التي جعلت أحد أبناء الحضارة الغربية يسأل متباهيًا: «هل يمكن أن تذكروا دولةً واحدةً لم تلتفت إلى الغرب في سعيها نحو الحضارة؟»[٢]

نحن في أشد الحاجة لمعرفة المنظومة المعرفية الغربية بكل أركانها؛ لأننا خسرنا كثيرًا من ذاتنا المعرفية حين تأخر انطلاق علم الاستغراب

نحن إذن في أشد الحاجة لمعرفة المنظومة المعرفية الغربية بكل أركانها، ليس لأننا نسعى لمعالجة ما يسمّيه الأستاذ طرابيشي «الجرح النرجسي» الذي تولّد نتيجة «السبق الحضاري المنقطع النظير الذي حققه الشطر الغربي من الكرة الأرضية».[٣] بل لأننا خسرنا كثيرًا من ذاتنا المعرفية حين تأخر انطلاق **علم الاستغراب**، وكان حجم خسارتنا بحجم التصوّرات والتوظيفات الخاطئة عن مكوّنات الفكر الغربي في عالمنا الإسلامي، مما يعني أننا حتى لو تواصلنا في الظاهر مع المنظومة الفكرية الغربية فإننا عمليًا واقعون في قطيعة معرفيّة مع الغرب؛ لأن تواصلنا معهم مشوبٌ بثلاثة أخطاء مركزية:

(٢) هو الكاتب الفرنسي موريس بيرنو. نقلًا عن فرغسون، نيال، **الحضارة**، ترجمة سعيد الحسنية (بيروت، شركة المطبوعات، ط١، ٢٠١٣) ص١٦٢.

(٣) طرابيشي، جورج، **مذبحة التراث** (بيروت، دار الساقي، ط٣، ٢٠١٢) ص٨.

➢ **الخطأ الأول:** سوء التصوّر؛ أي عدم تصوّر منتجات الفكر الغربي تصورًا سليمًا، وهذا عادةً ما يقع فيه الإسلاميون التقليديون؛ لأنهم لا يعتمدون على أنفسهم في إدراك النتاج الفكري الغربي، بل بواسطة قنطرة عربية مؤدلجة لا تنقل الأفكار كما هي، بل كما تريد.

➢ **الخطأ الثاني:** سوء التوظيف؛ أي الخطأ في إعادة توظيف المكوّن الفكري الغربي في البناء المعرفي الإسلامي، وهذا الخطأ يقع فيه عادةً من يُسمّون «الحداثيون العرب»، الذين يخرجون أحداث الغرب وأفكاره عن سياقاتها الاجتماعية والدينية ويعيدون إسقاطها في بيئة معرفية مختلفة اختلافًا تامًا.

➢ ونتج عن هذين الخطأين خطأٌ ثالث، وهو **سوء الظن**؛ فالكثير منا ينظر لمنتجات الفكر الغربي بعين الريبة والشك، ويرى أن الأصل فيها أنها تريد إرباك منظومته الإسلامية والمساهمة في انحرافها.

هذه الإشكالات تولّدت كلها بسبب غياب جسر منهجي بين المنظومتين المعرفيتين الإسلامية والغربية، فمنذ بدء الاحتكاك المعرفي بين تينك المنظومتين ونحن نعتمد على المحاولات الفردية في فهمنا للغرب، وفهم الغرب لنا، والمحاولات الفردية تعتريها ما يعتري الإنسان من خطأ ومزاجية وأدلجة.

نتج عن هذه الأخطاء كمٌّ هائل من الاختلافات الوهمية، أي الاختلافات التي لا يعود مناطها إلى التباين في الحكم والتقييم بقدر ما يعود إلى تباين موارد النزاع بين الفريقين، وبذلك اتسعت الفجوة، وخُلقت الحواجز الوهمية بين عقول المثقفين المسلمين.

وما كان لذلك _ أو لمعظمه_ أن يحصل لو أنَّ المسلمين أنشأوا علمًا منهجيًا يقيم **معادلة الفصل والوصل** بين المنظومتين المعرفيتين الغربية والإسلامية، وما كان ذلك ليحصل لو لم نترك عملية الاستيراد المعرفي خاضعة للأمزجة الفردية الأيدلوجية، فحيث غاب العلم حضرت الأيديولوجيا.

فنحن أمام خيارين: إمَّا أن نعرف الغرب معرفةً عشوائية، كما هو الواقع منذ أن بدأ الاحتكاك المعرفي بين الحضارتين، أو نعرفَه من خلال منهج معرفي مؤصل نتمكّن من خلاله تحقيق «الأحسنية» في الاستماع للقول الغربي، ونتمكّن من إيجاد حالة مثاقفة جادة، وهذا هو ما يسعى إليه **علمُ الاستغراب**.

إذن يهدف مشروعُ **علم الاستغراب** إلى أن يكون البوّابة الرسمية والمنهجية للداخلين إلى الصرح المعرفي الغربي، ويهدف لأن يكون المرشد السياحي للعقل الإسلامي عند تجواله في ربوع الحضارة الغربية؛ ذلك لأنَّه العلمُ الوحيد الذي سيتولّى دراسة الغرب دراسة تصوريَّة تحليلية نقدية وفقًا لمنهجية علمية موضوعية تسمح لنا بإعادة توظيف نتاج الفكر الغربي في دائرة اللانص في منظومتنا المعرفية. إذ إننا نحن المسلمين لدينا دائرتان في منظومتنا المعرفية:

- **الدائرة الأولى: دائرة النص الشرعي.**
- **الدائرة الثانية: دائرة اللانص.**

أما الدائرة الأولى؛ فالعملُ فيها يكون وفقًا لما يقتضيه النص الشرعي، فلا تحتاج إلى اجتهاد مجتهد إلا فيما يتعلق بالاجتهاد التفسيري والتنزيلي والتعليلي. لكن الدائرة الثانية؛ يقع التكليف فيها على العقل المسلم لإنشاء الاجتهاد التأسيسي وفقًا لأصول الإسلام العامة، ولما كان العقل الإسلامي لم يؤد هذه المهمة حقها في جميع المجالات الإنسانية والاجتماعية، فإنَّ عليه أن ينظر لإنتاج العقول الأخرى ويستفيد منها، فالحكمة ضالة المسلم أنى وجدها فهو أحق بها، وهذا ما يسعى له **علم الاستغراب**.

إذن مشروع **علم الاستغراب** يطمع إلى معرفة هذا الكائن المعرفي الهائل القابع في جوار العالم الإسلامي، يعرفه معرفةً علمية موضوعية؛ تقودنا إلى اكتشاف البنية النظريّة التي تشكّل العقل الغربي، والبنية العملية التي تشكّل انعكاسًا لقناعاته النظرية. ولا يمكن أن نحقق هذه الغاية إلا من خلال وجود علم مؤصّل يكون بمثابة الجسر المنهجي للتواصل مع الكائن الغربي، أما المحاولات الفردية العشوائية التي قضينا القرن الماضي في متابعتها؛ فإنها لن تثمر عملاً يمكن الاستفادة منه على المستوى الكلّي.

علاوةً على ما مضى، فإن مشروع **علم الاستغراب** يهدف إلى إعادة حالة المثقافة بين الحضارتين الغربية والإسلامية إلى وضعها الطبيعي، وضع الأخذ والإعطاء المتبادلين دون الاقتصار على أحدهما. ذلك أنه بعد سقوط الخلافة العثمانية وجدنا الأوروبيين في أوج نهضتهم، وتهاوت علينا أسهمهم الفكرية من كل قوس، حتى لم يبقَ في جسدنا الثقافي موضع شبرٍ إلا وأصابه سهمٌ غربي، حتى في منهجية تفسير النص القرآني. فلم نستطع دراستهم ندًا لند كما كنّا، بل غدونا فجأة تلاميذَ أمام أساتذتهم، نأخذ منهم ولا نعطي؛ فعجزنا عن دراستهم دراسة متوازية، وبطلت شروطُ المثاقفة التي كانت قائمةً على أصولها. ولكثرة ما تهاوى علينا من الغرب؛ وقف الناس موقفين: **موقفٌ** متذمّر نافر من كل فكرةٍ أنجبها الرحم الغربي، **وقومٌ** هالهم جمالُ الأفكار وبريقُها؛ فارتضوها شرعةً ومنهاجًا. وزادت الإشكالية تعقيدًا حينما ساهم السلوك السياسي الغربي ذو المعايير المزدوجة في تشكيل الموقف الفكري لكثيرٍ من المسلمين تجاه النتاج المعرفي الغربي.

الخلاصة، أنَّنا منذ أن وجدنا أنفسنا في احتكاك مباشر مع الكائن المعرفي الغربي؛ لم نستطع إيجاد آلية منهجية تجعل لهذا الاحتكاك قيمة إيجابية تنعكس على إنتاجنا المعرفي؛[٤] فلم نستطع أن نفهم الغرب أصلاً، ولم نستطع من باب أولى أن نحسن إعادة هيكلة منتجات الفكر الغربي وتوظيفها في البناء المعرفي الإسلامي.

واليوم، نريد أن نبدأ الخطوة الأولى على المسار المنهجي نحو الكيان الغربي، وهذه الخطوة تتمثل **بمجلة علم الاستغراب**، التي يصدر اليوم أول أعدادها بعد طول انتظار، وبإشراف نخبة من الأساتذة المتميزين من بيئات ثقافية مختلفة.

هذا، وليعفُ وليغفر القارئ الكريم المتشوّف للمعرفة الجادة والناظر بعين الإنصاف لجهود الآخرين لما يراه من قصور في هذا العدد الأول، فالله وحدَه يعلم كم كانت حجم العقبات، وكم كان تواضع القدرات التي منشؤها الأفراد لا المؤسسات، ولولا السعي الحثيث من الإخوة جميعًا ما كان لهذا الليل الطويل أن ينجلي، وما كان ليسطع نور فجر أول أعداد هذه المجلة. علم الاستغراب

(٤) باستثناء إشارات عند أبي حامد الغزالي وابن رشد الحفيد كما سنتعرّض لذلك.

كلمة رئيس التحرير

أ.د: عبدالقادر بخوش
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة قطر

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين؛ نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

وبعد؛ فها هي **مجلة علم الاستغراب** تطل علينا بشكلها القشيب، منارة علمية ونجما تألق في سماء الفكر الإسلامي المعاصر، وازدانت بها المكتبة الإسلامية.

مولودٌ جديدٌ يشق طريقَه نحو الصدارة؛ تؤسس نسقا مُغايرا من البحث والتّنقيب في المشهد الفكري الغربي بتشعباته و أبعاده المختلفة، بدأ ينبش أرضه ويحفر في هذه الأوابد و الربائد؛ لاستجلاء كوامنها واستشراف أسرارها.

لا يخفى أنَّ الغَرب يُمثل ظاهرة حضارية غالبة، وأننا نحيا على تخوم هذه الحضارة، هذا الغرب الذي يتربّع على المركزي والهامشي، وقد بلغ شأوا بعيدا من الرّقي المادي والتّقدم العلمي، واستطاع أن يجعل من نفسه مَشروعا ضخما، يُلقي بظلاله، ويبسط نفوذه على العالم برمته.

إنَّ استحضارَ الغرب وقراءته وامتلاك ناصية فهمه ليس ترفا نرنو إليه، وإنما هو حاجة ملحة، وفريضة شرعية تمليها مستجدات الشهود الحضاري

إنَّ استحضارَ الغرب وقراءته وامتلاك ناصية فهمه (**علم الاستغراب**) ليس تَرفا نَرنو إليه، وإنما هو حاجة ملحة، وفريضة شرعية تُمليها مستجدات الشهود الحضاري. إنَّ الإخلادَ إلى الموروث والانكفاءَ عليه وحده وغضّ الطّرف عن الفكر الآخر؛ يؤدي إلى التّحجر والتّقوقع، ومحكوم على صاحبه بالذوبان والاضمحلال. والحقيقة؛ أن الآخر هو المرآة التي نَستشف من خلالها أصالة أفكارنا وصدقها، فبالقياس إلى الآخر نُدرك نقائصنا ومحاسننا، وإذا كان الغربُ اليوم يمثل هذا الآخر، المهيمن فكرا وحضارة، فنحن

بحاجة إلى معرفة عميقة به، تُتيح لنا التعامل معه بشكل صحيح وفهم دقيق؛ يتجاوز تلك الأطروحات السّطحية السّاذجة إلى معرفة ترتقى إلى مصاف العلوم وبنيتها المنهجية.

وهذا ليس بدعا من القول؛ فالغربُ في بعض مراحله التّاريخية، أنشأ علم الاستشراق بُغية دراسة الآخر الشّرقي، ومع الإقرار بأهمية ما خلّف من مادة غزيرة ومتشعبة من حيث الكم والكيف، إلاّ أنّ الاستشراق وقع في المحظور العلمي، بعد أن فقد دلالته العلمية، ليأخذ بُعدا أيديولوجيا صرفا، وظلَّ الاستشراقُ – ولايزال – يُمارس نشاطا عدائيا ضِد العلم والتفكير العلمي، انتهى إلى مصادرة الأفكار و تشويه الحقائق.

إنَّ الدّعوة إلى قيام **علم الاستغراب**، ليس مبتغاها أن تكون ردّة فعل مُتشنجة لظاهرة الاستشراق ونزعاته الأيديولوجية؛ ذلك لأن الاستشراق لم يكن نَسقا أكاديميا صرفا، بل هو في عمومه مشروع غربي، غايته إخضاع شعوب الشّرق والسّيطرة عليهم، وقد خلّفت تلك الرؤية مأزقا منهجيا صارخا، وضع الخطاب الاستشراقي على المحك. وبالمقابل فإنّ الاستغراب الذي نطمح إلى دفعه قُدُما، هو محاولة تجاوز هذا القصور المنهجي الذي طبع الاستشراق، والعمل على تأسيس معالمَ منهجية، يُدرس من خلالها الغرب علميا، بعيدا عن لغة التّنظير المؤدلجة.

➢ رسالةُ **مجلة علم الاستغراب؛** هي استئصال مُركّب العظمة والشّعور بالاستعلاء لدى الغرب، هذا الغرب الذي ظلّ دائما متعاليا متمنعا عن الدراسة من قبل الآخر، فمن خلال مجلتنا يصير الغرب وآلياته المختلفة موضوعا خاضعا للدراسة. وبالمقابل يتم استرجاع الثّقة والانعتاق من عقدة النقص في علاقتنا بالغرب، والتي يَعتريها شعورٌ دفينٌ بالمغلوبية الحضارية إزاء الفكر الغربي؛ وذلك بأخذ زِمام المبادرة و البدء بإعداد مقاربات ابستيمولوجية تَليق بمستوى التّطور الرّاهن في الغرب، هدفُها التّخلص من الشّعور بالدّونية أمام هيمنة الغرب، لغة وعلما وثقافة وحضارة، وبهذا نتجاوز إشكالية الخطاب الغربي المتعالي عن الدّراسة، من كونه مَصدرا ملهما للعلم ليصبح موضوعا للعلم.

تهدف مجلةُ علم الاستغراب إلى وضع الفكر الغربي في إطاره الحقيقي و ردّه إلى موقعه الطّبيعي، وقراءته قراءة واعية مستوعبة لمنعرجات هذا الفكر ودروبه الفرعية، دون تهوين أو تهويل

➢ تهدف **مجلةُ علم الاستغراب** إلى وضع الفكر الغربي في إطاره الحقيقي و ردّه إلى موقعه الطّبيعي، وقراءته قراءة واعية مستوعبة لمنعرجات هذا الفكر ودروبه الفرعية، دون تهوين أو تهويل، وهذا من شَأنه أن يُثري الحوار الحضاري، القائم أساسا على تعدّد الأطياف وتناغمها والالتقاء فيما بينها، دون تمثل لفكر مركزي مهيمن.

كلمة رئيس التحرير

➢ تحاولُ **مجلة علم الاستغراب**، أن تكون ذلك المنبر العلمي الذي يجمع المختصين والمهتمين، أساسُه أن يُقام على أصول علمية، تتجاوز الدّعوات الدّعائية المتشنجة، وتتعدّاها إلى أُطر فكرية رصينة قادرة على استيعاب الفكر الغربي بكل أطيافه وأنساقه، في فضاء نحسب أنه لا يزال في طور التّأسيس، هذا الفضاء المشحون والمتوتر الذي لا يعرفه إلا من خَبر دهاليزه وكنهه المدلهم.

نأمل أن تُلبي المجلة تَطلعات الباحثين والمتخصصين، وأن تكون جسر تواصل بين المهتمين بقضايا الاستغراب، من خلال هذا المنبر الرّائد وبالعمل الدّؤوب؛ نسعى للنّهوض به نحو التّميز إقليمياً وعالمياً.

تضم هذه المجلة بين دفتيها في عددها الأول، مقالات مُشرقة لها حضورها الفاعل، تتوافقُ جميعُها في كونها تعالج الخطاب الغربي من أوجه مختلفة ووفق مقاربات منهجية متعددة، وهو جُهدٌ رَفيع وعملٌ بديع لصفوة من الأساتذة النّابهين، تستبينُ أفكارا ثرية العطاء، من العلم وحسن المعالجة، وغزارة المادة، والنّفاذ بعمق واحترافية إلى القضايا الشّائكة.

➢ **مجلةُ علم الاستغراب** تجتهدُ في استقطاب الدّراسات الجادة والبحوث الرّصينة في شتّى مجال الدراسات الغربية، بما يسهم في رفد الحركة العلمية للاستغراب، فضلا على نشر عَبق رحيقها وجَديد أفكارها، مما يجعلها ذات صبغة عالمية تستجيبُ لمتطلبات المرحلة الرّاهنة وتَطلعاتها.

في هذا السّياق؛ تتطلعُ المجلة – باعتبارها حاضنة للدّراسات حول الغرب– نحو عمل أكاديمي مؤسّس، عن طريق تجميع النّخب والكفاءات في مجال الاستغراب، وتبادل الخبرات للخُروج بمقاربة توافقية حول الدّراسات الغربية، منْ أجل إرساء آليات ومرجعيات موحدة لضمانِ التّميز، بما يُعزّزُ مكانتها المحلية والعالمية، ويُمهد السّبيل لبعث هذا النّوع من الدّراسات، باعتبارها أحد أهمّ الرّهانات المعوّل عليها؛ للارتقاء بالفكر الإسلامي المعاصر إلى مصاف طموحات العصر الحاضر وتطلعاته العلمية.

وفي الختام، نتقدم بجزيل الشّكر والعرفان والتّقدير، لكل من أسهم في إنجاز هذا العدد من الأساتذة النّابهين أصحاب هذه الدّراسات، والشّكر موصول، للخبراء الأفاضل الذين قاموا مشكورين بتحكيم البحوث، وأعضاء هيئة التحرير، والمستشارين، والطاقم الإداري للمجلة؛ مؤمنين بأنَّ **مجلة علم الاستغراب** سَتظلُ بإذنِ الله منارةً للدّراسات الإسلامية الأصيلة حول الغرب، وحاضنةً للبحث العلمي الرّصينِ، وشجرةً باسقة تُفرد ظلالها الوارفة في أرض دولة قطر الشّامخة، ذات التّاريخ الأصيل، وصاحبة المجد الأثيل.

وبالحمد تتم الصالحات.

في البنية النظرية

نحو منهجية مقترحة لتأسيس علم الاستغراب

الدكتور: نايف بن نهار
العميد المساعد لشؤون البحث والدراسات العليا بجامعة قطر

مقدمة

لقد كانت هناك محاولات عديدة للبدء **بعلم الاستغراب**، لكن في اعتقادي أنَّ هذا المشروع بدأ بدايةً خاطئة، وانحرف عن مساره تبعًا لذلك. فقد كانت محاولة الدكتور حسن حنفي هي المحاولة الأبرز، لكنها محاولة لا يمكن التعويل عليها؛ لكونها نقلت **علم الاستغراب** من الخطاب العلمي المنهجي إلى الخطاب الأيديولوجي الانتقامي الذي لا يؤمن سوى بمنطق الانتصار أو الانكسار، الفوز أو الخسارة، و**علم الاستغراب** لا يمكن إلا أن يكون خاضعًا للمنطق العلمي لا للمنطق الأيديولوجي. وصوَّر آخرون **علم الاستغراب** على أنه محض سرد تاريخي لمطلق الاحتكاك بين الحضارتين الإسلامية والغربية. وهذا ما جعل المهمة أكثر تعقيدًا؛ إذ صار من الواجب قبل البدء بالبحث أن تنفي اللبس المتولّد من بعض المحاولات السابقة، وليس البدء ابتداءً وأصالةً.

وهذه الدراسة المقترحة التي أقدّمها؛ هي محاولة لإعادة ترتيب الانطلاقة، محاولةٌ خاضعةٌ كل الخضوع لتقييم الأساتذة والباحثين في هذا الشأن لاستخراج سلبياتها؛ كي نصل في نهاية المطاف إلى أفضل السبل المؤدية إلى تأصيل هذا العلم تأصيلاً منهجيًا.

وقد بحثتُ في هذه الدراسة خمسة أسئلة:

- **ما موضوع علم الاستغراب وتعريفه؟**
- **هل الاستغراب علم؟**
- **ما غاية علم الاستغراب؟**
- **ما منهج دراسة علم الاستغراب ؟**
- **ما قضايا علم الاستغراب ومباحثه؟**

هذه الأسئلة _التي من شأن الإجابة عليها أن تُحدد هويّة هذا العلم وبوصلته_ لم نصل بعدُ إلى الإجابة عليها بصورة واضحة، وباستثناء مساهمة الدكتور حنفي التي حرَفت العلم عن مساره، فإنَّ كلَّ الدراسات التي اطّلعتُ عليها؛ هي حديثٌ «**عن**» الاستغراب وليست حديثًا «**في**» الاستغراب.

المبحث الأول: علم الاستغراب: الموضوع والتعريف

لن نخوض هنا في نقد تعريفات **علم الاستغراب** المقترحة من قِبل الباحثين العرب،(١) بل سنشرع مباشرةً في تبيين التعريف المختار؛ إيجازًا واختصارًا، فنقول: كلمة «**استغراب**» تبدأ بحروف: همزة الوصل والسين والتاء، وهذه الحروف الزائدة على الفعل الأصلي تدلُّ من حيث الأصل(٢) على طلب شيءٍ ما، كما هو مقرَّرٌ في علم الصرف.(٣) فحين نقول «استغفار» فإننا نطلب المغفرة، وحين نقول «استعلاء» فإننا نطلب العلو، وحين نقول «استرضاء» فإننا نطلب الرضا، وهلم جرا.

تفريعًا على ما سبق، حين نقول «**استغراب**» فإننا نطلب شيئًا ما، وهذا الشيء هو الغرب. لكن السؤال: أي غرب نطلب؟، هل نطلبُ الغرب مطلقًا أم باعتبارات معيّنة؟. **علمُ الاستغراب** لا يطلب الغربَ إلا من اعتبار محدد، وهو: **اعتبار التأثير المعرفي**، أي أننا نبحث عن الغرب باعتباره كائنًا معرفيًا مؤثرًا. فالغرب له صرح معرفي كلّي ــمنذ العصر الأثيني إلى العصر الحديثــ تم تدويله بصور مختلفة، هذا الصرح هو موضوعُ **علم الاستغراب**.

إذن التعريف المقترح لعلم الاستغراب أنَّه: **العلم الذي يدرس الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثّر**.(٤)

علم الاستغراب هو: العلم الذي يدرس الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثّر

يبدو هذا الكلام عامًا جدًا؛ لأن الحديث عن الغرب باعتباره كائنًا معرفيًا يعني الحديث عن جميع مجالات المعرفة، سواءً كانت مرتبطة بالعلوم التطبيقية أو العلوم الاجتماعية والإنسانية أو الأدبية أو الفنية أو غير ذلك، ولا يمكن ــبطبيعة الحالــ أن يكون هذا كلُّه موضوعًا لعلمٍ واحد. ولذلك نحتاج هنا إلى تحديد أكثر، ولفعل ذلك لا بد أن نوضح نقطتين:

---

(١) سنتعرّض لبعضها في ثنايا البحث.

(٢) نقول من حيث الأصل؛ لأنها قد تأتي لغير الطلب، فقد تأتي للتحويل مثل: ''استحجر الطين'' أي صار حجرًا. وقد تأتي للإخبار عن المطاوعة، مثل ''استقام'' و ''استحكم''. راجع في ذلك: الرائقي المالكي، حمد بن محمد، **فتح الفعّال على القصيدة المسماة لامية الأفعال**، تحقيق: إبراهيم البعيمي (السعودية، الجامعة الإسلامية، ط١، ١٤١٨) ص ٢٤٠.

(٣) المرجع السابق، المكان نفسه.

(٤) نلاحظ على هذا التعريف إخراجَ الآليات والغايات؛ لأنَّه ليس من صناعة التعريف أن يتضمّنهما، وإنما غاية التعريف هو تبيين ماهية الشيء؛ لأن الشيء قائم بذاته سواء تحققت غاياته أم لم تتحقق، وسواء اتفقنا على آليات الوصول إليه أم لم نتفق. ومن هنا يخطئ بعض الباحثين حين يُدخل غاية الشيء في تعريفه.

➢**النقطة الأولى:** أن عملية إدخال جميع المجالات المعرفية الغربية في موضوع **علم الاستغراب** أمرٌ مستحيل.

➢**النقطة الثانية:** أن الذي يهمنا في **علم الاستغراب** هو الإنتاج الفكري عند الغرب، وليس الإنتاج العلمي؛ لسببين:

➢**الأول**: أن الإنتاج العلمي لا خلاف في قبوله بين المسلمين، فليس ثمة مَن يرفض استعمال المنتجات المادية الغربية لكونها غربية، حتى "داعش" تستعمل بكل فخر أحدث المنتجات العلمية الغربية. أما الإنتاج الفكري الغربي فهو مناط الخلاف بين المسلمين، وهو الذي ساهم في إعادة تشكيل بعض عناصر المشهد الثقافي العام مما أدى إلى خلق اختلافات كبرى في الصف الإسلامي؛ ولذلك تعيّن التركيز عليه.

➢**الثاني**: إن البحث في المنتجات العلمية يحتاج إلى أدوات بحثية مغايرة تمامًا لأدوات البحث في المنجزات الفكرية، وهذا يعني أنه لم يعد صالحًا ليُطرح في أروقة العلوم الإنسانية. أما ما يتعلق بالآداب والفنون فهذه يُخرجها كلمة «علم» التي نصف بها الاستغراب؛ لأنه لا الآداب ولا الفنون يصدق عليها أنها علم.

إذن، نحن لا نطلب مطلق الغرب ولا نطلب الغرب مطلقًا، لا نطلب مطلق الغرب؛ لأننا لا نهتم إلا بإنتاج الغرب المؤثِّر، وليس كل الغربِ مؤثرًا كما سوف نعرف. ولا نطلب الغرب مطلقًا؛ لأننا لا نهتم بكل أشكال الإنتاج الغربي، وإنما بالإنتاج المعرفي النظري الذي يشكّل الفكر عمادًا له.(٥)

بعد أن انتهينا من تحديد تعريف **علم الاستغراب** نوضّح أنَّه تعريفٌ للبُنية النظرية فقط، ذلك أنَّ لعلم الاستغراب بُنيتين:

➢**بنية نظرية:** وهي الصرح المعرفي النظري الغربي الذي أُسّس منذ العهد الأثيني إلى العصر الحديث.

➢**بنية علمية:** تتناول البناء المعرفي الغربي المعاصر، سواء من حيث بُعدُهُ الواقعي أو بُعْدُه المعرفي. وفي البنية العملية يكون الموضوع أوسع وأشمل؛ فمن حيث الوعاء سيتسع مفهوم الغرب ليشمل جميع الدول الأوروبية والأمريكية، وليس قاصرًا على ست دول كما هو الحال في البنية النظرية. ومن حيث المعرفة سيتسع الأمر ليشمل جميع أنواع المعرفة وفروعها. وهذا أمر واسع جدًا، **والمقترح أن تكون هناك موسوعة خاصة في هذا الأمر.**

(٥) ليس خافيًا أن الحضارة الغربية كانت حضارة فكر قبل أن تكون حضارة علم.

ما الغرب؟

إذا كنا متفقين على أن موضوع **علم الاستغراب** هو الغرب، فإننا لسنا متفقين على تحديد المقصود بالغرب. هل نجعل المعيار جغرافيًا؟؛ أي كل من هو قابع في شمال الكرة الأرضية، فتدخل بذلك روسيا الاتحادية ودول أوروبا بأكملها وكندا والولايات المتحدة الأمريكية. أم نجعل المعيار ثقافيًا؟؛ مما يعني زيادة إسرائيل ونيوزيلندا وأستراليا إلى القائمة السابقة. أم نجعل المعيار دينيًا؟؛ وتلوًا تدخل جميع الدول التي تدين بالمسيحية وهي في القارات الخمس. أم نجعل المعيار اقتصاديًا؟؛ وتلوًا تدخل في ذلك كل الدول المتقدمة بحسب تصنيفات المنظمات الدولية.

هذا الخلاف لا يهمنا في هذا المقام؛ لأننا إذا عدنا إلى تعريف **علم الاستغراب** ـ من حيث بنيته النظرية ـ لا نجده مرتبطًا بالغرب من حيث هو غرب، بل من حيث هو كائن معرفي مؤثّر في غيره، أي أننا ندرس في هذا العلم الدول الغربية التي كان لها تأثير معرفي. وإذا ارتضينا هذا المعيار حداً فاصلاً؛ فإنَّ المقصود بالغرب يكون ستة دول أساسية: اليونان، إيطاليا، إنجلترا، فرنسا، ألمانيا، الولايات المتحدة.

المقصود بالغرب ستة دول أساسية: اليونان، إيطاليا، إنجلترا، فرنسا، ألمانيا، الولايات المتحدة.

هذه الدول ـ باستثناء الولايات المتحدة ـ دولٌ منتجة فكريًا، وهي مَن ساهم حصرًا في بناء الصرح المعرفي الغربي بنحوٍ أساسي، وإن كانت إسهامات هذه الدول لم تكن في زمنٍ واحد، فاليونان كانت أولاً بلا منازع، ثم إيطاليا طوال القرون الوسطى، ثم إنجلترا ثم فرنسا ثم ألمانيا[٦] في ترتيبٍ تقريبي أغلبي، وأخيرًا الولايات المتحدة، لكن ليس باعتبارها منتجًا بل مسوّقًا ومروجًا كما سنرى.

أما بقية الدول الغربية؛ فإنها لم تشارك في بناء الصرح المعرفي الغربي إلا لمامًا، فقد تجد فيلسوفًا هنا أو مفكرًا هناك وضع حجرًا في هذا البناء الضخم،[٧] لكنك لن تجد تيارات فلسفية أو نخبًا ثقافية ساهمت في بناء الصرح المعرفي الغربي إلا في تلك الدول.[٨]

---

(٦) شنَّ الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه هجومًا قاسيًا على ثقافة بلده، فهو يرى أنه ''حيثما ينتشر ما هو ألماني فإنها تفسد الثقافة''. ويرى''أنَّ العقل الألماني عسير الهضم ولا يستطيع أن يتمثّل شيئًا''. راجع: نيتشه، فريدريك، **هذا الإنسان**، ترجمة مجاهد عبدالمنعم (دمشق، دار نينوى، ط١، ٢٠١٤) ص٤٤، وص٣٥.

(٧) كما هو الحال مع الفيلسوف الهولندي مولدًا والإسباني أصولًا باروخ إسبينوزا .

(٨) سوف نتحدث لاحقًا عن طبيعة مساهمات هذه الدول.

هل اليونان من الغرب؟

رفض "صموئيل هنتغتون" إدخال اليونان في الحضارة الغربية، وذلك في إطار رفضه إدخال جميع الدول الأرثوذكسية، وقد جعل المؤرخ البريطاني "نيال فرغسون" اليونان مجرد «عضو فخري في الغرب، وذلك بالرغم من ولائها لاحقًا للمسيحية الأرثوذكسية».[٩] إذن هل نعدُّ اليونان من الغرب أم لا؟

لا تعارض في الحقيقة بين جعلنا اليونان جزءًا أساسيًا في الغرب ورفضِ صموئيل وفرغسون ذلك؛ لأنَّ جهتي النظر منفكة، فهم يتحدثون عن الغرب اليوم، عن الحضارة الغربية بوجهها الحضاري المعاصر، ونحن نتحدث عن الغرب من حيث هو موضوع **لعلم الاستغراب**، أي من حيث هو كيان معرفي مؤثر، ولا ينكر صموئيل ولا فرغسون ولا غيرهما أنَّ اليونان هي الأرضية المعرفية التي انطلق منها الغربُ، وأنها كانت مؤثرة بصورة أساسية في الحضارتين الغربية والإسلامية.

أما في الوقت الحاضر فنحن متفقون على فقدان اليونان راهنيتها، أي أننا نقول بصراحة: إن اليونان ليس لها أي قيمة معرفية مضافة في العصر الحديث، فهي جزءٌ من الماضي، ذلك الماضي السحيق الذي يفصلنا عنه أكثر من ألفي عام.

الولايات المتحدة مسوّق لا منتج

لم تُسهِم الولايات المتحدة قط في بناء الصرح المعرفي الغربي، والعلّة في ذلك أنها نشأت وتأسست بعد استقرار الصرح المعرفي الغربي. إضافةً إلى أنها حتى بعد أن نشأت وانتهت من مشاكلها الداخلية وحروبها الأهلية لم تستطع أن تقدّم إنتاجًا فكريًا مستقلاً عن نتاج الحضارة الأوروبية، فغدت محض امتداد فكري لتلك الدول، كما هي امتداد لأوروبا من حيث النسل البشري. ولقد أحسن "نيال فرغسون" حين جعل الولايات المتحدة «نتاجًا للحضارة الغربية»[١٠] وليست جزءًا من الحضارة نفسها.[١١]

---

(٩) فرغسون، نيال، **الحضارة**، ترجمة سعيد الحسنية (بيروت، شركة المطبوعات، ط١، ٢٠١٣) ص٥٤

(١٠) فرغسون، **الحضارة**، مرجع سابق، ص٥٥.

(١١) يقول الروسي بلاتونوف –المتخصص بالشؤون الأمريكية– عبارةً قاسية بحق الأمريكيين: ''إنَّ الأمريكيين من الناحية الثقافية؛ هم الشعب الأقل أهمية في العالم''. ويقول: ''الأمريكيون في أغلبهم شعب يجمع بينهم قاسم مشترك غريب، فكل قيم حياتهم تتركز على كسب النقود وسباق الاستهلاك''. راجع: بلاتونوف، ألغ، **لهذا كله سوف تنقرض أمريكا**، ترجمة نائلة موسى (دمشق، دار الحصاد، ط١، ٢٠٠٢) ص٥١

➤ لماذا نقول إن الولايات المتحدة لا تملك إنتاجًا فكريًا مستقلاً؟، إذا قلنا إن الفكر يتمثّل في منتجات ومناهج فكرية، فإنَّ شيئًا من ذلك لم يتجرأ عقلٌ أميركي على فعله استقلالاً. فإذا تأملنا المنتجات الفكرية التي تلوكها ألسنة المفكرين الأميركيين، نجدها كلها جاءت من أوروبا، ولا شيء وُلِد أصالةً من الرحم الأميركي. فالديمقراطية والرأسمالية والليبرالية والبراغماتية، وحتى النظريات السياسية مثل الفصل بين السلطات والسلام الديمقراطي؛ كل ذلك لم ينشأ في الولايات المتحدة حتى لو اشتهر لاحقًا بسببها. فالديمقراطية منتج أثيني، والليبرالية ووجهها الاقتصادي منتجان إنجليزيان، والبراغماتية_التي تلازمت مع الفلسفة الأميركية_ تعود جذورها إلى الإيطالي "مكيافيللي"، ونظرية السلام الديمقراطي تعود إلى "أمانويل كانت"، والفصل بين السلطات بدأت عند "أرسطو" الأثيني ومرّت "بجون لوك" الإنجليزي وانتهت عند "مونتسكيو" الفرنسي.

وإذا تأملنا المناهج الفكرية الغربية _سواء ما كان منها قبل الحداثة أو بعدها_ نجد كل ذلك ليس للعقل الأميركي فيه علاقة خلا علاقة المستهلك والمسوّق.

➤ والآن قد يسأل سائل: إذا كانت الولايات المتحدة دولة مستهلكة فكريًا وليست دولة منتجة، فلماذا نُدخلها ضمن **علم الاستغراب** الذي يدرس الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثّر؟.

الجواب يتمثّل في سببين أساسيين:

➤**الأول**: لأنَّ الولايات المتحدة؛ هي المسوّق الأبرز لمنتجات الفكر الغربي، وهي من تولّى فرض الأيديولوجيات الغربية على دول العالم، فصحيحٌ أن الديمقراطية منتجٌ أثيني وترعرع في بريطانيا، لكن مَن أشهر المسوّقين له في العالم، أليس الولايات المتحدة؟، من الذي خصص صندوقًا للوقف الديمقراطي منذ عام ١٩٨١ بمليارات الدولارات، أليس الولايات المتحدة؟، مَن الذي انتهك سيادات الدول ودمّرها بذريعة نشر الديمقراطية، أليست الولايات المتحدة؟.

➤**الثاني**: لأنَّ الولايات المتحدة؛ تعدُّ النموذج العملي الأبرز لكثيرٍ من النظريات الغربية، أي أنَّها جسّدت عمليًا ما تقرَّر نظريًا، فإذا أردنا أن نتحدث عن أبرز نموذج جسَّد النظرية الليبرالية الإنجليزية مولدًا فلن يتنازع اثنان في تعيّن الصيرورة إلى النموذج الأميركي. ولن نجد كذلك من ينازع في أنَّ الولايات المتحدة هي أبرز من جسّد نظرية الفصل بين السلطات الأثينية مولدًا والفرنسية مآلاً. وقل الشيء نفسه عن الرأسمالية والبراغماتية.

إذن ما مضى يبرهن لنا أنَّ ما يميّز الولايات المتحدة عن سواها؛ أنَّها بلا منازع البوابة السياسية الأكبر التي من خلالها يلج العالم إلى منتجات الفكر الغربي ومناهجه.

المبحث الثاني: هل الاستغراب علمٌ؟

ثمة خلافٌ قديمٌ حديثٌ حول مدى دقة وصف العلوم الاجتماعية والإنسانية بأنها «علم»؛ وهذا التشكيك في علميَّة العلوم الاجتماعية ناشئ عن مقارنته بالعلوم الطبيعية والتطبيقية التي تتسم قواعدها وقوانينها بالصرامة والدقة، وتتسم نظرياتها بالاستناد إلى الحس والتجربة؛ وهما من أبرز أدوات الوصول إلى العلم اليقيني.

والذي يبدو، أنَّ هذا الخلاف خلافٌ لفظي صوري وليس خلافًا حقيقيًا؛ لأنَّ مورد النزاع فيما يبدو ليس محررًا، ولذلك حتى نخرج من هذا السجال؛ لا بد أن يكون النقاش حول مسألة ثانية، وهي ما تعريفنا للعلم؟.

فمن يُعرّف العلم بما يستلزم الاستناد إلى التجربة والحس؛ فلن يصف سوى العلوم التطبيقية بأنها علم. ومن يعرّف العلم بأنه كل مادة معرفية لها موضوعٌ محدد، ولها قواعدها وأصولها ونظرياتها ومنظمة في صورة مباحث محددة، من يعرّفها بذلك لن يجد حرجًا في وصف العلوم الاجتماعية بأنها علم.

إذن هناك مساران أساسيان للعلوم:

- **المسار الأول**: العلوم التطبيقية.

- **المسار الثاني**: العلوم الاجتماعية والإنسانية.

و**علم الاستغراب** لا يندرج بطبيعة الحال ضمن العلوم التطبيقية، وإنما هو محسوبٌ على العلوم الاجتماعية والإنسانية. وإذا صحَّ لنا ذلك، فإنَّ السؤال عن مدى علميَّة الاستغراب يتوقّف على جواب السؤال الآتي: ما الذي يجعل العلوم الاجتماعية علومًا؟، بمعنى آخر: ما الذي أباح للسياسة أن تكون علمًا؟، وما الذي أباح لعلم الاجتماع أن يكون علمًا؟، وما الذي أباح للعلاقات الدولية أن تكون علمًا؟.

إذا نظرنا إلى هذه العلوم؛ فإننا لا نجدها تستند إلى حس ولا إلى تجربة، وإنما الذي جعل كلاً منها علمًا ثلاثة أمور:

➢**أولاً:** امتلاكها موضوعًا معرفيًا مستقلاً، وهذا أهم ما يميّز العلوم، لأنَّ العلوم لا تتميّز عن بعضها بالنظريات والأفكار، فهي كثيرًا ما تتداخل بين عدة علوم، وإنما تتمايز العلوم بتمايز موضوعاتها. يقول أبو حامد الغزالي: «لا شك في أنَّ لكل علم موضوعًا يُبحث فيه عن أحوال ذلك الموضوع».(١٢)

➢**ثانيا:** ترجمة الموضوع المعرفي إلى فصول ومباحث متنوّعة تغطّي جميع جوانب الموضوع. وهذا موضوع في غاية الأهمية؛ لأنَّه يحدد بوصلة العلم وقبلته، فالعلم الذي ليس له مباحث محددة يمكن لأي باحث أن يسير به ذات اليمين وذات الشمال. يقول الدكتور الجابري: «إنَّ التمييز بين موضوعات البحث الخاصة بكل علم؛ ضرورةٌ منهجية».(١٣)

➢**ثالثا:** امتلاكها نظريات ومدارس ومذاهب مختلفة في تفسير قضايا العلم. كما هو الحال في جميع أفرع العلوم الاجتماعية.

بعد توضيح ما مضى نسأل: هل يملك **علم الاستغراب** هذه المقوّمات التي تمنحه وصف العلم؟.

أما امتلاك موضوع معرفي مستقل؛ فهذا قد تحدثنا عنه سابقًا في مسألة تعريف **علم الاستغراب**، وهو الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثّر. أما مسألة امتلاك فصول ومباحث محددة؛ فكل الكتابات السابقة لم تُفِد شيئًا في هذا المجال ولم تعتنِ به. ولذلك نقول بوضوح: إن الاستغراب لم يصل إلى مرحلة العلم برغم كل المحاولات السابقة، فلا تُعرف إلى الآن موضوعاته ولا مباحثه ولا غاياته ولا مناهجه، كل ذلك ما زال غامضًا. علاوة على أن الإشكالية تزيد؛ إن علمنا أن المساهمة الأشهر في تأسيس **علم الاستغراب**ـ وهي مساهمة الدكتور حسن حنفيـ لم تزد **علم الاستغراب** إلا تيهًا وضياعًا، فقد صار موضوع **علم الاستغراب** غامضًا بسبب الغايات التي جعلها منوطةً به، كما أفقد **علم الاستغراب** قيمته؛ حين صوّره على أنه انتقامٌ حضاري من الغرب، فأخرجه بذلك من مسار العلم إلى مسار الخطابة الأيديولوجية. في هذا المقترح نحاول المساهمة في نقل قاطرة الاستغراب من مسار فوضوي إلى مسارٍ علمي واضح المعالم والمنطلقات والغايات.

الاستغراب لم يصل إلى مرحلة العلم برغم كل المحاولات السابقة، فلا تعرف إلى الآن موضوعاته ولا مباحثه ولا غاياته ولا مناهجه، كل ذلك ما زال غامضا

(١٢) الغزالي، أبو حامد، **مقاصد الفلاسفة**، تحقيق أحمد المزيدي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ٢٠٠٣) ص٦٣.

(١٣) الجابري، محمد عابد، **مدخل إلى فلسفة العلوم** (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٨، ٢٠١٤) ص١٩.

فيما يتعلق بمباحث **علم الاستغراب**؛ فقد قدَّمنا منهجًا مقترحًا لأبواب **علم الاستغراب** وفصوله ومباحثه، والرجاء أن يكون هذا المنهج كفيلاً بتجاوز هذه الخطوة. وإنني أدّعي أنَّ مباحث **علم الاستغراب** ــ كما هي موضّحة في هذا المقترح ــ أكثر وضوحًا وانضباطًا من مباحث علم العلاقات الدولية ومباحث علم الفلسفة ومباحث علم السياسة. فنحن إذا تصفحنا كتب العلاقات الدولية وقرأنا فهارسها فإننا لا نكاد نجد كتابين يتحدثان عن المباحث ذاتها،(١٤) ومع هذه الفوضى في تحديد مباحث علم العلاقات الدولية؛ فإنك لا تجد الكثيرين يتحرّجون من نعته بالعلم، وتدريسه في الجامعات على أنه علمٌ مستقل منذ نهاية الحرب العالمية الثانية. فإذا كانت فوضوية مباحث العلاقات الدولية لم تقف عائقًا دون تمتّعه بوصف العلم، فمن باب أولى أن يفوز الاستغراب بوصف العلم؛ لانضباط مباحثه.

أما ما يتعلّق بالنظريات والمدارس؛ فهذه ليست مطلوبة في مرحلة تأسيس العلوم؛ بل هي لاحقة عليها بعد استقرارها. فالمنطق يقتضي أن يتحدد موضوع العلم ومباحثه، ثم بعد أن تتوارد عقولُ العلماء في بحث تلك المباحث؛ تنتج آليًا النظريات والمذاهب. ولذلك يمكن أن نقول: إن النظريات والمذاهب شرطٌ لكمال العلم ونضجه وليست شرطًا لتأسيس العلم ونشأته.

➢ الخلاصة، أنَّنا إذا أخذنا بالاعتبار وجود ذينك العنصرين ــ الموضوع وانضباط المباحث ــ فإنه يجوز لنا أن نصف الاستغراب بعد أن يحققهما بأنه علمٌ.

(١٤) وقد بيَّنتُ ذلك في مقدمة كتابي "**مقدمة في علم العلاقات الدولية**".

المبحث الثالث: غاية علم الاستغراب.

جرت العادة، أنَّ كل مشروع جديد يُطرح في سوق المعرفة تصيبه آفتان:

- **الآفة الأولى**: المبالغة والتضخيم لما يُتوقّع منه.
- **الآفة الثانية**: تقزيم أهداف المشروع وغاياته، وربما سلبها الجدوى والنفع.

علمُ الاستغراب ليس استثناءً من هذه السنّة، فقد وقع تقزيمٌ له من خلال الدعوى بأنه محض دراسات تاريخية وصفية؛ مما يعني أنه محض تكرار. لكنَّ هؤلاء المقللين من قيمة **علم الاستغراب** قليلون إذا ما قورنوا بالفريق الآخر، الذي بالغ جدًا في الحديث عن غايات **علم الاستغراب** إلى مستوى جعله عصا سحرية؛ ستحل جميع مشاكل الأمة الإسلامية وستقضي على هيمنة الحضارة الغربية. وعلى رأس هؤلاء الدكتور حسن حنفي الذي لا بد من الوقوف مليًا عند الغايات التي ذكرها كي ندرك وجه الإشكالية.

ذكر الدكتور حنفي عدة غايات **لعلم الاستغراب**، من أبرزها:

- "رد الغرب إلى حدوده الطبيعية، وإنهاء الغزو الثقافي، وإيقاف هذا المد الذي لا حدود له"
- "إكمال حركة التحرر الوطني على المستوى الثقافي والعلمي والحضاري والمعرفي".
- "مقابلة المشروع المعرفي الغربي بمشروع معرفي لا غربي، والتحول من علاقة المركز بالأطراف القديمة، التي سادت العصور الحديثة، إلى علاقة تبادلية بين أكفاء بلا مركز أو أطراف".
- "القضاء على أساطير الحضارة العالمية والمعلّم الأبدي والمركز الدائم ونهاية التاريخ وصراع الحضارات والعولمة والنموذج الآري والمعيار المزدوج والتفوّق والعنصرية والهيمنة والسيطرة والسيادة والغزو الثقافي".(١٥)

نلاحظ هنا، أن الدكتور حنفي خرج **بعلم الاستغراب** عن مساره تمامًا؛ إذ جعل غايته كل ما مضى. لا يمكن **لعلم الاستغراب** أن يكون مسؤولاً عن التحرر الثقافي والعلمي والحضاري والمعرفي، ولا يمكن له أن تكون مهمته مجابهة المشروع الغربي، أو أن يحوّل الغرب من قمّة المركزية إلى الندية المتبادلة المتكافئة، هذه كلها ليست من مسؤولية **علم الاستغراب**، بل ولا هو قادرٌ عليها أصلاً.

---

(١٥) حنفي، حسن، **ماذا يعني علم الاستغراب** (بيروت، دار الهادي، ط٢، ٢٠٠٥)) ص٧٣، ص٥٠، ص٥٧.

إنَّ الذي يمكنه أن يحررنا ثقافيًا؛ هو أن نمتلك مشروعًا حضاريًا متكاملاً يوازي المشروع الحضاري الآخر. ولا يمكن لعلم أو علمين أو ثلاثة تشكيلُ جبهةٍ تواجه الحضارات الأخرى، فالغايات التي ذكرها الدكتور حنفي هي غاياتٌ لحضارة تامّة، وليس لعلمٍ له موضوعه المحدد، ولا يمكن لأي علم أن تُناط به هذه الغايات. **علمُ الاستغراب** لن يتغيَّا حلَّ مشاكلنا السياسية، ولا مشاكلنا الاقتصادية، ولا مشاكلنا الاجتماعية ولا مشاكلنا الدينية، فليس مطلوبًا من **علم الاستغراب** أن تكون هذه غاياته؛ لأنه بكل وضوح غير قادر على ذلك.

إنَّ الذي يمكنه أن يحررنا ثقافيا هو أن نمتلك مشروعا حضاريا متكاملاً يوازي المشروع الحضاري الآخر

علم الاستغراب لن يلغي هيمنة الحضارة الغربية؛ لأنه لا يلغي هيمنة الحضارة إلا حضارةٌ موازية، و**علم الاستغراب** ليس حضارةً. هل يمكن لعلم الاقتصاد أو لعلم السياسة أو لعلم الطب أو لعلم الفيزياء أو لعلم الفلك أو لعلم الهندسة، هل يمكن لأيٍّ من هذه العلوم أن تكون آلية لإلغاء هيمنة أي حضارة في العالم؟.

وحين يقول الدكتور حنفي: إن «مهمة **علم الاستغراب**؛ هي إعادة التوازن للثقافة الإنسانية بدل هذه الكفة الراجحة للوعي الأوروبي».(١٦) نجد أن الأمر غير منطقي؛ لأنه إذا كان وجود **علم الاستغراب** يعيد التوازن للثقافة الإنسانية، فإن ذلك يستلزم أن الاستشراق هو الذي أخل بالتوازن، وهذا غير صحيح. الذي أخل بالتوازن؛ هو تقدّم الغرب في مناهج المعرفة ومنتجاتها وتطوّر بنيتها المعرفية بصورة عامة، فإذا أردنا أن نعيد التوازن؛ فيجب أن يكون ذلك من خلال الدخول في السباق المعرفي مع الغرب وليس من خلال **علم الاستغراب** وحده.

إنَّ الجدل حول تحديد غاية **علم الاستغراب** لن يكون مقصورًا على الجانب النظري، بل سينعكس بالضرورة على الجانب العملي؛ لأنَّ الحديث عن غاية **علم الاستغراب** سينعكس بالضرورة على موضوعه، إذ إنَّ موضوع العلم يتحدد من خلال غايته، فإذا كانت غايةُ علم الطب هو صيانة البدن؛ فإنَّ موضوعَ علم الطب سيكون مرتبطًا بالبدن. وإذا كانت غاية علم المنطق صون العقل؛ فسيكون موضوعه مرتبطًا بالعقل. وإذا كانت غاية علم الفقه تبيينَ أحكام التكليف؛ فإنَّ موضوع علم الفقه سيكون مقصورًا على أفعال المكلّفين التي تعدُّ متعلقاتٍ لأحكام التكليف.

علم الاستغراب لن يلغي هيمنة الحضارة الغربية؛ لأنه لا يلغي هيمنة الحضارة إلا حضارةٌ موازية، وعلم الاستغراب ليس حضارة

(١٦) المرجع السابق، ص٥٩.

إذا اتفقنا على أن غاية العلم تحدد موضوعه، فما عساه أن يكون موضوع **علم الاستغراب** إذا كانت غايته «إلغاء هيمنة الحضارة الغربية» و «إكمال حركة التحرر الوطني» ونحو ذلك مما ذكره الدكتور حنفي؟، لا يمكن أن يكون لتلك الغايات موضوع واحد، بل مجموعة موضوعات قد لا ترتبط فيما بينها بأرضية معرفية مشتركة، بل قد لا تكون جميعها مؤطرة بإطار علمي.

إذن، الخلل واضحٌ في طرح الدكتور حنفي، وهو خللٌ مركّب وليس بسيطًا، أي أنه ليس مقصورًا على مسألة تضخيم غايات **علم الاستغراب** وإرغامه على أن يقوم بوظيفة الحضارة بدلاً من وظيفة العلم، بل هو خللٌ ممتدٌ إلى موضوع العلم نفسه، **مما يعني مآلاً؛ أنَّ الارتضاء بأطروحة الدكتور حنفي لا يعني سوى الارتضاء بانحراف علم الاستغراب عن مساره المنطقي إلى مسارٍ لا قبلةَ له.**

الآن بعد نقد الغايات التي ذكرها الدكتور حنفي، نطرح السؤال الآتي: ما الغايات التي يمكن أن نجعلها منوطةً **بعلم الاستغراب**؟.

نقول إنَّ لعلم الاستغراب ست غايات مشروعة:

- الغاية الأولى: تطوير الإنتاج المعرفي الإسلامي، من خلال إعادة توظيف الإنتاج الفكري الغربي المناسب.
- الغاية الثانية: المساهمة في تصحيح مسار الفكر الغربي، من خلال التلاقح الفكري.
- الغاية الثالثة: إعادة تقييم عملية استيراد الإنتاج المعرفي الغربي في المعرفة الإسلامية.
- الغاية الرابعة: تمكين المسلم من الاطلاع على الحضارة الغربية وإسقاط الحواجز المعرفية التي تحول بين تينك الحضارتين.
- الغاية الخامسة: نقل التعاطي مع الغرب من حالة المثاقفة العفوية والعشوائية إلى حالة المثاقفة المنظمّة.(١٧)
- الغاية السادسة: نقل الوعي الإسلامي من حالة الامتداد إلى حالة الاستقلال.

هذه هي الغايات الست التي تبدو لي الآن، وإذا تأملناها جميعًا نجد أنها تعود إلى غايتين كليّتين: **الإفادة والاستفادة**. وسوف نتعرَّض لهذه الغايات على نحو مختصر:

(١٧) يقسّم علماء الاجتماع المثاقفة إلى ثلاثة أقسام: مثاقفة عفوية ومثاقفة منظمة، ومثاقفة مخططة، راجع: دوني كوش، **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية** (دمشق، دار رسلان، ط، ٢٠١١) ص٧١. ونحن هنا لا نستعمل المثاقفة المنظمة بنفس مدلولها في علم الاجتماع، وإنما بمعنى المخططة.

الغاية الأولى: تطوير الإنتاج المعرفي الإسلامي، من خلال إعادة توظيف النتاج الفكري الغربي المناسب.

لا تدّعي الأمة الإسلامية أنها تعيش حالة من الاكتفاء الثقافي، ولا توجد منظومة فكرية يمكنها أن تدّعي ذلك، فكلُّ منظومة يعتريها النقص، إما أصالةً أو عرضًا، فهي بحاجة دائمة للاستيراد المعرفي. وقد أمرنا الله ﷻ بأن نستمع القول فنتبع أحسنه ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ (الزمر: ١٨). وفي **علم الاستغراب** نريد أن نستمع إلى ما لدى الغرب لنتبّع أحسنه، ونتجنّب ما عداه. والمنهج النبوي قائم على استيراد المعرفة حيث كانت وممن كانت، فقد جعل كافرًا من كفار قريش دليلاً له في طريق هجرته حين كان مطاردًا من قريش، وأي شيء أشد خطرًا من التعويل على أحد في مثل هذه المسألة، كما قال ابن القيم؟، وحين كانت الأمية منتشرة بين الصحابة ﷺ جعلهم النبي ﷺ تلاميذ عند الكفار ليتعلموا القراءة والكتابة،(١٨) **فلم يكن التباين الديني مانعًا من المعرفة الحقَّة**، كما يريد ذلك جهّالُ المسلمين اليوم. وقد عبّر عن هذا المنهج الفيلسوف المسلم ابن رشد حين كان يتحدث عن منهج التعاطي مع تراث الآخر المتمثّل آنذاك بكتب الفلاسفة اليونانيين: «يجب علينا أن ننظر في الذي قالوه من ذلك وما أثبتوه في كتبهم: فما كان منها موافقًا للحق؛ قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه، وما كان منها غير موافق للحق؛ نبّهنا عليه وحذّرنا منه وعذرناهم».(١٩)

> في علم الاستغراب نريد أن نستمع إلى ما لدى الغرب لنتبّع أحسنه، ونتجنّب ما عداه

وهذا هو ما ينسجم مع المنهج الإلهي، فالله ﷻ قد أمرنا بألا تحملنا كراهة قومٍ على ألا نعدل معهم ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ (المائدة:٨)، ومن العدالة مع الآخر ألا ترفض كل ما لديه، بل تعمل على التمييز بين صحيح ما لديه من باطله؛ فتقبل الأول وترفض الآخر، فمن السذاجة أن تجعل أخطاء الآخرين حواجز تحول بينك وبين ما لديهم من فوائد. كما قال ابن عقيل الحنبلي: «من أكبر ما يفوت الفوائد؛ ترك التلمّح للمعاني الصادرة عمَّن ليس بمحل للحكمة، أترى يمنعني من أخذ اللؤلؤة وجداني لها في مزبلة؟».(٢٠)

---

(١٨) عن ابن عباس قال: "كان ناس من الأسرى يوم بدر، لم يكن لهم فداءٌ، فجعل رسول الله ﷺ فداءَهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابةَ". أخرجه الإمام أحمد وصحح إسناده محقق المسند الشيخ أحمد شاكر. راجع: ابن حنبل، أحمد، **المسند**، تحقيق: أحمد شاكر (القاهرة، دار الحديث، ط١، ١٩٩٥) ج٣، ص٢٠.

(١٩) ابن رشد، محمد بن أحمد، **فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**، تقديم الدكتور محمد الجابري (بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٥، ٢٠١١) ص٩٣.

(٢٠) نقلًا عن: ابن مفلح، محمد، **الآداب الشرعية والحكم المرعية** (بيروت، عالم الكتب) ج٢، ص١١٢.

وقد عاب تقيُّ الدين ابنُ تيمية على المتكلمين؛ أنَّهم حين شنّوا حربًا ضد منتجات الفلاسفة لم يميزوا بين ما هو صحيح وما هو باطل، بل جعلوا جميع ما لدى الفلاسفة في سلة واحدة. وهذا أمر يعدُّه ابن تيمية «من بدع المتكلمين»؛ وأنَّ الواجب يتجسَّد في قبول الصحيح في ذاته من إنتاج الفلاسفة؛ لأنَّ «كل ما عُلِم بالعقل الصريح فلا يوجد عن الرسول إلا ما يوافقه ويصدقه».(٢١)

الغاية الثانية: المساهمة في تصحيح مسار الفكر الغربي، من خلال التلاقح الفكري.

الحضارة الغربية ليست منظومة صلبة من الصواب، بل فيها من نقاط الضعف ما جعل بعض أهلها يفقدون الثقة فيها، ويتنبؤون بمصيرها إلى الانحلال والانحطاط. فمؤرخ الحضارات البريطاني "نيال فرغسون" يقول عن الحضارة الغربية: «الحضارة الغربية كما يبدو قد فقدت ثقتها بنفسها» ونتيجةً لفقدان الثقة بهذه الذات الحضارية فقد «بدأت سلسلة من الجامعات الهامة بالامتناع عن تقديم دورة دراسية عن تاريخ الحضارة الغربية، وبدأت المدارس بالتخلي عن سرد قصة صعود الغرب العظيمة أمام طلابها».(٢٢) كما ذكر أن الحرب العالمية الأولى تعدُّ «أولى العلامات التي تؤشر على أنَّ الغرب يحمل في داخله بذور خرابه».(٢٣)

بل إن هناك من يرى أنَّ ملامح إدبارها باديةٌ، فالمؤرخ والفيلسوف "ألبرت أشفتيسر" يقول قبل نحو مئة عام: « نحن نعيش اليوم في ظل انهيار الحضارة، وهذا الوضع ليس نتيجة الحرب، وإنما الحرب مجرد مظهر من مظاهره».(٢٤)

إذن، ثمة اعتراف من داخل المنظومة أنها لا تسير على ما يرام، بل إنها في طريقها إلى الانهيار، وهذا ما يزيد من قيمة النقد الخارجي الذي سوف يمارسه **علم الاستغراب**.

---

(٢١) ابن تيمية، **الرد على المنطقيين** (بيروت، دار المعرفة، ط١، د.ت) ص٢٦٠.

(٢٢) فرغسون، **الحضارة**، مرجع سابق، ص٥٩.

(٢٣) المرجع السابق، ص٢٨٤.

(٢٤) أشفتيسر، ألبرت، **فلسفة الحضارة**، ترجمة عبدالرحمن بدوي (القاهرة، دار الأندلس، د.ت، د.ط) ص١١

في **علم الاستغراب**؛ لا نكتفي بدور التلميذ فحسب، بل نمارس دور الأستاذية كذلك، وذلك من خلال الممارسة النقدية للإنتاج الفكري الغربي. لكننا لا نمارس النقد لأجل النقد واستخراج العيوب في الذات الغربية والتشفّي والتباهي بذلك، فتلك أخلاقٌ لا تليق بأمة الإسلام، بل نحن مطالبون بأن نبحث عن الأحسن ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ﴾، والوصول إلى الأحسن؛ يستلزم إعمال النقد في ما أنتجه العقل الإنساني ــ والغربي ومنه ــ نقدًا علميًا، لتمييز السيء من الحسن، والحسن من الأحسن.

في علم الاستغراب لا نكتفي بدور التلميذ فحسب، بل نمارس دور الأستاذية كذلك

ولما كان المسلمون يمتلكون أدواتهم النقدية ومناهجهم الفكرية، فإن سهامًا كثيرة من النقد ستوجّه للفكر الغربي بكل مكوّناته من مصادر ومناهج ومنتجات.

➢الغاية الثالثة: إعادة تقييم عملية استيراد النتاج المعرفي الغربي في المعرفة الإسلامية.

يقول "توماس إليوت": «إن التاريخ يحكم على الشعوب تبعًا لما أضافته إلى ثقافة الشعوب الأخرى النامية معها في نفس الوقت، وتبعًا لما أضافته إلى الثقافات التي تقوم فيها بعدُ».(٢٥)

وبناءً على ذلك؛ فإننا نحتاج أن نعرف ماذا أضافت لنا الثقافة الغربية حين استوردنا شيئًا من عناصرها، سواء في نهضتها الأولى في العصر اليوناني أو في العصر الحديث. فقد استورد المسلمون شيئًا من الإنتاج الغربي مرتين في التاريخ الإسلامي:

(٢٥) توماس إليوس، **ملاحظات نحو تعريف الثقافة**، ترجمة شكري عياد (القاهرة، المركز القومي للترجمة، ط١، ٢٠١٠) ص٦١

➢ **المرحلة الأولى**: في زمن الترجمة، وفي هذا المرة كان الاستيراد مقصورًا في الغالب على منتجات الفلسفة اليونانية، وهي تتمثل في ستة أقسام أساسية: الإلهيات، والطبيعيات، والرياضيات، والمنطق، والسياسة، والأخلاق.

وقد قام علماء الإسلام آنذاك بوظيفة إعادة تقييم هذه العناصر الثقافية الداخلة في إطارهم الثقافي، ولم يكتفوا باستقبالها وإدراجها في العقل الذاتي دون أن تمر على قنطرة النقد والتحليل. ومن أبرز مَن قام بهذه الوظيفة الإمام أبو حامد الغزالي، الذي درس تلك العلوم الأربعة، ثم بعد عملية تقويمية لها؛ وصل إلى أنَّ منها ما يُقبل كاملاً، ومنها ما يُرفض كاملاً، ومنها يُقبل بعضه دون الآخر. أما الرياضيات فقبلها كاملةً؛ لأنَّه «ليس في مقتضيات الحساب ما يخالف العقل والحق، ولا هي مما ممكن أن يُقابل بإنكار وجحد».(٢٦) أما الإلهيات فقد رأى أبو حامد أنَّ «أكثر عقائدهم فيها على خلاف الحق، والصواب فيها نادر»، والعكس تمامًا ينطبق على المنطق الذي «أكثره على منهج الصواب، والخطأ نادر فيه».(٢٧)

أما قسم الطبيعيات؛ فلم يستطع الغزالي الحكم عليه بحكم مطلق كما فعل مع الأقسام الأخرى، والعلة في ذلك أنَّ «الحق فيها مشوبٌ بالباطل، والصواب فيها مشتبه بالخطأ، لا يمكن الحكم عليها بغالب ومغلوب».(٢٨)

ثم ناقش الغزالي كل هذه الأحكام بالتفصيل في كتابيه «مقاصد الفلاسفة» الذي كان مخصصًا للجانب التصويري، و«تهافت الفلاسفة» الذي انتقل فيه إلى الجانب التقييمي.

➢ **المرحلة الثانية**: منذ القرن التاسع عشر إلى يومنا هذا، وفي هذا المرة كان النتاج متنوعًا، فقد استورد المسلمون كل شيء من كل شيء. ونتج عن ذلك أن استقرّ في منظومتنا الثقافية العديد من المنتجات السياسية كالديمقراطية، والمنتجات الأيديولوجية كالماركسية، والمنتجات الاقتصادية كالمصارف وشركات التأمين التي صارت جزءًا من الفقه الإسلامي، بالإضافة إلى أنَّنا استوردنا علومًا بأكملها من الغرب، فعلوم العلاقات الدولية والسياسة والاجتماع وعلم النفس كلها لا تدرّس في جامعاتنا باعتبارها منتجًا محليًا، بل باعتبارها صراحةً منتجًا مستوردًا من منظومة ثقافية أخرى مباينة تمام المباينة لمنظومتنا الثقافية.

---

(٢٦) أبو حامد الغزالي، محمد بن محمد، **مقاصد الفلاسفة**، تحقيق: أحمد المزيدي (بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ص٢٠٠٣) ص٩.

(٢٧) المرجع السابق، المكان نفسه.

(٢٨) المرجع السابق، ص١٠.

وإذا كان الغزالي حاول وحده أن يتصدّى للمنتجات المستوردة آنذاك ويقوم بإعادة تقييمها وغربلتها، فإنَّ هذا الأمر لا يمكن أن يقوم به في عصرنا إلا عمل مؤسسي جماعي يضمُّ جيوشًا من الباحثين؛ لأنَّ الرقعة قد اتسعت، والسوق غارقة بالبضاعة الأجنبية، فلم يعد الأمر قاصرًا على علم المنطق والإلهيات والطبيعيات والرياضيات، بل صار شاملاً كل شيء.

علم الاستغراب يهدف إلى تقييم تلكم المنتجات التي استوردناها من الغرب

علم الاستغراب يهدف إلى أن يكون إطارًا لهذه الغاية والمهمة، فيعيد تقييم تلك المنتجات التي استوردناها، سواء من حيث أصل الاستيراد أو من حيث عرضيَّة التوظيف. فالثقافات يحصل لها مع مرور الزمن تبدّل لبعض عناصرها سواء أشعر أربابها أم لم يشعروا.

الغاية الرابعة: إسقاط الحواجز المعرفية التي تحول بين الحضارتين.

لا يزال كثيرٌ من المسلمين يتوجّسون خيفةً من نتاج العقل الغربي، لا يثقون بمنطلقاته الفكرية، ولا بغاياته التوظيفية، فمنطلقات الأفكار ناشئة إما عن دين باطل أو عن إلحادٍ متستّر، وغايات الأفكار تصبُّ غالبًا في نهر إبطال الحق وإحقاق الباطل.

وهذا الأمر يجده المرء واقعًا معيشًا وليس محض ضربٍ من خيال، فحين أذكر فكرة أو كلامًا لأحد المفكرين الغربيين؛ تجد هناك من ينظر إلى الكلام بادئ ذي بدء على أنه مريب ومشكوكٌ فيه، أي أن الأصل بطلانه حتى يثبت العكس، وهذا العكس إن ثبت له عقلاً فإنه لا يثبت له قلبًا.

إننا نحتاج هنا أن نؤدي الدور الذي أداه الأستاذ السنهوري، حين وفَّق بين القانون والشريعة بكل سلاسة وهدوء قاطعًا بذلك السبيل أمام كل التشغيبات الوهمية. لكن ما سهّل الأمر للأستاذ السنهوري أنه بدأ الصوابَ قبل أن يبدأ الخطأ، ونحن هنا نبدأ بعد بدء الخطأ واستقراره في الطرفين. ذلك أنَّ التصوّرات المستقرة في العقل الإسلامي حول منطلقات المنتجات الفكرية الغربية وغاياتها؛ حصل لها الكثير من التشويش بسبب عدم موضوعيّة الناقل العربي. و**علم الاستغراب** مطالبٌ بأن يزيل الحواجز الوهميّة الناشئة عن ذلك التشويش، من خلال نقل منتجات الفكر الغربي كما هي، أي كما وردت عند مؤسسيها، وتحديد غاياتها كما حددها مؤسسوها، لا أن نقوّلها ما لم تقل، ولا أن نجعلها كما نريد بل كما كانت.

والمتوقّع من إزالة الحواجز المعرفيَّة؛ أن يطّلع المسلمُ على مواطن القوّة والضعف في الحضارة الغربيَّة كما هي، فلا يقع في إشكاليتيْ التقزيم والتضخيم. ذلك أنَّ الغرب مر بتحوّلات وأنتج أفكارًا، وتلك التحوّلات تعدُّ كبرى عند قوم ولا تعدُّ كذلك عند آخرين، كما أنَّ تلك الأفكار تعتريها المشكلة ذاتها بين مؤيديها ومناوئيها، وهذا كلُّه بسبب غياب المعيار الموضوعي في تقييم الآخر.

الغاية الخامسة: نقل التعاطي مع الغرب من حالة المثاقفة العشوائية إلى حالة المثاقفة المنظمّة.(٢٩)

على الرغم من أنَّ قضية المثاقفة من القضايا المهمة ذات التأثير المباشر في صناعة العقول، فإننا في العالم الإسلامي لم نلتفت لها جيدًا، ولم نعطها حقَّها الذي تستحقه.

المثاقفة: هي عملية التفاعل الثقافي بين ثقافتين مختلفين نتيجة الاحتكاك المستمر بينهما، وهذه العملية من أعقد وأخطر العمليات التي تعتري الثقافات، وهي قادرة على تفكيك عناصر الثقافات وإقحام عناصر أخرى دون شعور لدى العقل الجمعي لا بالخروج ولا بالدخول.

حتى تثمر شجرة المثاقفة؛ لا بد أن تكون قائمة على الأخذ والإعطاء، أي أنَّ كلا من الثقافتين تأخذ من الثقافة الأخرى وتعطيها، أما إذا كانت إحدى الثقافتين تمارس دور الآخذ فقط؛ فإننا في هذه الحالة أمام **ثقافة مهيمنة** وليس **مثاقفة منظمة**، بحيث تكون عناصر الثقافة المهيمنة متغلغلة في الثقافة الآخذة.

الآن نريد نحن المسلمين أن ندرس الغرب، فهل نحن أمام حالة مثاقفة متوازنة أم حالة ثقافة مهيمنة؟.

(٢٩) يقسّم علماء الاجتماع المثاقفة إلى ثلاثة أقسام: مثاقفة عفوية ومثاقفة منظمة، ومثاقفة مخططة، راجع: **دوني كوش**، ص٧١ ونحن لا هنا نستعمل المثاقفة المنظمة بنفس مدلولها في علم الاجتماع، وإنما بمعنى المخططة.

ربما المتبادر إلى ذهن الإنسان المسلم أنَّنا أمام حالة ثقافة مهيمنة، لكن هذا ليس دقيقًا ولا يصح أن يكون جوابًا مطلقًا. وبيان ذلك أن نقول: إنَّ أيًا من الثقافتين لم يمارس دورًا واحدًا طوال تاريخه، فلم تكن الثقافة الغربية تمارس دور المعطي دائمًا، ولم تكن الثقافة الإسلامية تمارس دور الآخذ دائمًا، بل كان الأمر سجالاً، دهرًا نكون فيه آخذين وآخر نكون فيه معطين.(٣٠) وقد تم التبادل في محاور أساسية سوف نتعرَّض لها في كتاب «مقدمة في **علم الاستغراب**» عند الحديث عن مبحث المثاقفة.

غاية علم الاستغراب أن ينقل حالة المثاقفة الحالية من مثاقفة عشوائية إلى مثاقفة مخططة ومؤصلة

هذا كله يجب أن يتوقف وينتهي عند البدء **بعلم الاستغراب**، ولذلك نقول: إنَّ غاية **علم الاستغراب** أن ينقل حالة المثاقفة الحالية من مثاقفة عشوائية لا إطار ولا منهج لها إلى مثاقفة مخططة ومؤصّلة على حد تعبير علماء الاجتماع.

➢الغاية السادسة: نقل الوعي الإسلامي من حالة الامتداد إلى حالة الاستقلال

هذه الغاية تشكّل ثمرةً ونتيجةً للغاية السابقة، وإنما أفردتُها بالذكر لأهميتها ومحوريّتها في التعاطي الحضاري بين الأمم.

قبل نحو ثلاثة عشر قرنًا، في أول احتكاك معرفي مكثف مع الحضارة الغربية، حين زار الكائن المعرفي الغربي ــ المتمثّل في الفلسفة اليونانية وامتداداتها ــ العالمَ الإسلامي؛ لم يجد ترحيبًا من التيار العام في المشهد العلمي، بل طُرد شرّ طردة، وحُذّر منه أشد التحذير. لكنه مع هذا الطرد والتحذير لم يغادر العالم الإسلامي، بل بقي ضيفًا ثقيلاً تحوم حوله الشكوك والشبهات، لم يهتم كثيرًا لطرد الفقهاء والمتكلمين والمحدثين له؛ فقد وجد عند الفلاسفة المسلمين استضافةً لا يحلم بها.

والحق أنَّه كان ضيفًا في بدء الأمر، لكنَّ الأمور ما لبثت حتى استحال الضيفُ إلى مضيف، وصار العقلُ الفلسفي الإسلاميُّ حاشيةً على متن العقل اليوناني، وفرعًا من أصله، وجدولاً من نهره، وهنا وُلِد الإشكال.

(٣٠) على سبيل التمثيل، تجد الرشديين في القرون الوسطى خصومًا لأتباع أوغسطين، وتلاميذ لابن رشد، وابن رشد بدوره كان تلميذًا لأرسطو. وفي المقابل أتباع أوغسطين هم في الحقيقة امتداد لكتابات ابن سينا والفارابي، وهما في المقابل كانا امتدادًا للأفلاطونية المحدثة.

إننا نقول بصوتٍ عالٍ: استطاع الفكر اليوناني أن يسلب الوعي الحضاري الذاتي عند الفلاسفة المسلمين، فمهما حاول الكثير الادعاءَ بأن فلاسفتنا مستقلون فعلاً عن الدائرة الأثينية، فإنَّ واقع مؤلفاتهم يدلُّ على أنَّ وعيهم الفلسفي كان امتدادًا للوعي الفلسفي الغربي.

لستُ أتحدث عن رأي للفارابي هنا أو رأي لابن رشد هناك، نعم قد تجد تفرّدات للفلاسفة المسلمين وتوظيفات في السياق الإسلامي، وقد تجد إسقاطات للمنجزات المعرفية اليونانية على الواقع الإسلامي، لكن من حيث الوعي الكلّي؛ فإن العقل الفلسفي الإسلامي كان دائرًا تمامًا مع العقل الأثيني، فالقضايا التي يثيرها هي قضايا اليونان، والإشكالات التي يثيرها هي إشكالات اليونان، بل والحلول والمقاربات للمسائل الفلسفية

كانت مقاربات أثينية. إنني أدّعي هنا أنه لا يوجد فيلسوف مسلم ــ لا الكندي ولا الفارابي ولا ابن سينا ولا ابن مسكويه ولا ابن باجه ولا ابن طفيل ولا ابن رشد ــ حاول أن يخلق مقاربة نابعة من نظامه المعرفي الذاتي للموضوعات الفلسفية، لا سيما الموضوع السياسي الذي كان المناط الأكثر إمكانية لإيجاد مقاربة له من النظام المعرفي الإسلامي. لم توجد مقاربات فلسفية للموضوعات الدينية المشتركة ولا مقاربات دينية للموضوعات الفلسفية، فماذا استفدنا إذن؟.

إنَّ الاستثناء الوحيد ــ وهو استثناء منقطع لأنه ليس من السلك الفلسفي ــ كان الإمام أبا حامد الغزالي، فلم ينجح التراث اليوناني في سلب وعيه الحضاري، بل استطاع التعامل بنديّة حضارية معه، أخذ ما أخذ وترك ما ترك، بناءً على ما يقتضيه نظامه المعرفي الإسلامي.

إذن، يمكننا أن نقول: إنَّ الغزو اليوناني السابق؛ سلب الوعي الحضاري الذاتي عند جمهور الفلاسفة المسلمين،[٣١] **والسؤال هنا: هل الأمر نفسه يتكرر في العصر الحديث؟**

(٣١) وقد يكونون معذورين في ذلك، فالعقل غالبًا ما يخضع تحت سلطة الجديد، لا سيما إن كان هذا الجديد يخلق تفرّدًا للمرء في بيئته المعرفية.

إنَّ الوضع اليوم أشد تعقيدًا عما كان عليه في السابق، ففي السابق كان التراث الغربي حصرًا على التيار الفلسفي فقط،(٣٢) وأما اليوم فجميع شرائح المشهد العلمي فتحت أبوابها للمنتجات المعرفية الغربية، بما في ذلك علماء الشريعة الذين اتخذوا موقف الرفض شبه المطلق في السابق. هذا من جهة، ومن جهة أخرى، لم يستعمل الغزو المعرفي الأول الذي استهدف العالم الإسلامي من الأسلحة سوى ما أنتجته الترسانة اليونانية، لكننا اليوم نعيش تحت قصف كثيف وعشوائي من جميع أصناف الترسانة الغربية، بدءًا من الأفكار وانتهاءً بالمأكل والمشرب والملبس، هذا القصف الذي جعل كثيرًا منا يفقد وعيه الذاتي، ويفكّر من خلال وعي «الآخر».

من غايات علم الاستغراب أن يجعل العقل المسلم يستحضر وعيه الحضاري الذاتي حين يفكّر في قضاياه، وألا يكون امتدادا للوعي الغربي

ماذا يعني أن يتحاور المسلمون اليوم في الحداثة وما بعد الحداثة وأيهما أصلح لمجتمعاتنا؟، منذ متى مررنا نحن في العالم الإسلامي بأجواء الحداثة فضلاً عن أجواء ما بعد الحداثة؟. إن وعينا الإسلامي لم يمر بهذه المراحل الفكرية، فليس ثمة قرون وسطى في الإسلام، ولا نهضة ولا تنوير ولا حداثة ولا ما بعد حداثة، هذه كلها محطات تنقَّل بينها القطارُ المعرفي الغربي ولا علاقة لنا بها، لكن وعي المسلم ذاب وانصهر في وعي الإنسان الغربي؛ حتى صار المسلم يفكّر من منطلقات الإنسان الغربي،(٣٣) ويحار كما يحار الغربي في تبنّي تلك الخيارات الفكرية المطروحة في سوق المعرفة الغربية.

إنَّ من غايات **علم الاستغراب**؛ أن يجعل العقل المسلم يستحضر وعيه الحضاري الذاتي حين يفكّر في قضاياه، أن يضع حدًا فاصلاً بين الوعيين، وألا يكون الوعي المسلم امتدادًا للوعي الغربي مهما تضخّم وتعاظم، فالحضارة الأوربية في نهاية المطاف «ليست هي مركز العالم ولا هي مرآة الخير الأسمى» على حد تعبير "روسي بيير".(٣٤)

---

(٣٢) كان عدد المنتسبين للتيار الفلسفي كثيرًا من حيث هو، وإن كان قليلًا مقارنةً بالمشهد العلمي العام، فقد كان الذين يحضرون دروس أبي نصر الفارابي بالمئات، وهذا الرقم يعدُّ كبيرًا من حيث هو، لكن إذا ما عقدنا مقارنة بينه وبين عدد الطلبة الذين يحضرون في العلوم الأخرى؛ لوجدنا أن البون شاسع. فالفكرة؛ أن التيار الفلسفي أو الشباب المهتم للشأن الفلسفي لم يكونوا قلةً.

(٣٣) خذ مثلًا، أن الذين دبروا الانقلاب في تركيا عام ١٩٩٧ أطلقوا عليه ''ثورة ما بعد الحداثة''، كأنَّ الأتراك مروا بثورات القرون الوسطى والحداثة والآن وصلوا إلى ما بعد الحداثة !

(٣٤) روسي، بيير، **تاريخ العرب الصحيح**، ترجمة: مولود طياب (الجزائر، موفر للنشر، ط١، ٢٠٠٧) ص١٠.

المبحث الرابع: علم الاستغراب وسؤال المنهج

حين ندرسُ الغربَ من حيث هو كائن معرفي؛ فإننا نحتاج إلى أربعة مناهج:

- المنهج الوصفي
- المنهج التحليلي
- المنهج النقدي
- المنهج المقارن

نحتاج **المنهج الوصفي** في وصف البُنى المعرفية الغربية كما هي عند أصحابها، أي بلا وساطة معرفية لا غربية ولا عربية، وهذا يستلزم الحيادية التي تعني الاقتصار على الجانب التصويري دون الجانب التقييمي. ونحتاج إلى **المنهج التحليلي** لتحليل البُنى المعرفية الغربية، وتفكيك عناصرها الذاتية والطارئة عبر التاريخ. أما ما يتعلق **بالمنهج النقدي** فالمقصود هو نقد البنية المعرفية الغربية من خلال أدوات منهجية تنتمي إلى المنظومة المعرفية الناقدة، أي إلى المنظومة الإسلامية.

فالمنظومة الإسلامية تمتلك أدواتٍ ومناهجَ معرفية من شأنها إعمالُ الفعل النقدي في المنظومات المعرفية الأخرى. ونحن إذ نمارس الوظيفة النقدية لا نعني بذلك أنَّ بناءنا المعرفي كاملٌ لا نقص فيه، كما يقول ذلك بعض الباحثين،[٣٥] بل نقول: إن لدينا نقصًا ونقائص في كل العلوم التي تقدّم لنا أدوات معرفية نقدية، كعلوم الأصول والحديث والكلام والتفسير، لكنَّ هذا النقص ليس إشكالاً مانعًا من التوظيف؛ بل هو أمر طبيعي يعتري كل الجهود البشريّة التي تشكّل المنظومات المعرفية الكبرى.

(٣٥) يقول الباحث عادل عيساوي: " إنَّ الناظر في فلسفة النظام المعرفي الإسلامي وبنيته المقاصدية؛ حتمًا سيلاحظ أن هناك سلسلةً تربط بين المفاهيم وليس هناك فراغات أو ثغرات داخل هذا النظام ". عيساوي، عادل، **سؤال الاستغراب في النظام المعرفي الإسلامي** (الدوحة، مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث، ط١، ٢٠١٦) ص١٦.

إن أكبر منظومة معرفية في العالم هي المنظومة الإسلامية؛ فهي مترامية الأطراف، بعيدة الأعماق، متنوّعة المجالات المعرفية، ساهم في بنائها أعراقٌ وأجناسٌ ومذاهب وثقافات مختلفة، من أقصى الأندلس إلى أقصى بلاد فارس، آلاف العقول المنهمكة في البحث المعرفي تدفقت جداولها في محيط هذه المنظومة، ومنظومة بهذا الحجم لا يمكن إلا أن تعتريها نقائص وإشكالات، لكنها النقائص المتولّدة عن التفكّر والعمل، عن السعي الدائم والمتنوّع تجاه المعرفة، فلو كان العقل الإسلامي جامدًا لا حراك فيه منذ نشأته ما كنا إذن لنستطيع الوصول إلى هذه الإشكالات. فعلى سبيل المثال، قدّم الإمام الشافعي مشروعه المتمثّل في كتاب «الرسالة»؛ ليخدم الفقيه في عملية الاستدلال الشرعي، وقد نتج عن هذا العمل بعضُ الإشكالات، لكن هذه الإشكالات ليست دليل تخلّف، بل دليل تقدّم؛ لأنَّ الشافعي لو لم يتقدّم وينقل المعرفة من حيّز الجدل الذهني إلى حيّز الجدل المكتوب؛ لما استطاع أن يبني هذا البناء الأصولي، ولو لم يبنِ هذا البناء لما كانت هناك إشكالات توجّه إليه؛ لأنَّ العدم لا يحوي إشكالات، فالإشكالات إذن نتيجة بناء وعمل، وديمومةٍ في الفعل العقلي.

نحن إذ نمارس الوظيفة النقدية لا نعني بذلك أنَّ بناءنا المعرفي كاملٌ لا نقص فيه

والمنهج المقارن يُعنى بالعمل على مقارنة مناهج الفكر ومنتجاته بين المنظومتين الغربية والإسلامية، وهذا ما سنحتاجه بصورة أكبر حين نقارن البنية المصدرية في كلٍّ من الفكرين الغربي والإسلامي، وكذلك نقارن مناهج تناول الموضوعات الفلسفية بين كلٍّ من فلاسفة الغرب والمسلمين.

المبحث الخامس: مباحث علم الاستغراب

ذكرنا سابقًا، أنَّ من شروط العلم أن تكون له مباحث وقضايا محددة تشكّل مناط بحثه، وإلا فإنَّه يكون عُرضةً للاختطاف من لدن كلِّ فوضويٍّ مؤدلجٍ. والمقترح أن تكون مباحث **علم الاستغراب** كالآتي:

➢ الباب الأول: مقدمات حول علم الاستغراب

الفصل الأول: مقدمات تمهيدية

المبحث الأول: موضوع علم الاستغراب وتعريفه

المبحث الثاني: جذور علم الاستغراب

المبحث الثالث: غاية علم الاستغراب

المبحث الرابع: هل الاستغراب علم؟

الفصل الثاني: مقدمات في المنهج

المبحث الأول: المثاقفة وشروطها

المبحث الثاني: قواعد في التعامل مع المنظومة الفكرية الغربية

الفصل الثالث: مقدمات في الحضارة الغربية

المبحث الأول: ما مفهوم الحضارة؟

المبحث الثاني: ما الحضارة الغربية وخصائصها؟

المبحث الثالث: مقارنة خصائص الحضارتين الإسلامية والغربية

➢ الباب الثاني: مصادر الفكر الغربي

الفصل الأول: المصادر العقلية:

المبحث الأول: التراث اليوناني

المبحث الثاني: القانون الروماني

الفصل الثاني: المصادر النقلية:

المبحث الأول: اليهودية

المبحث الثاني: المسيحية

➢ الباب الثالث: تحوّلات الغرب الكبرى

الفصل الأول: سقوط أثينا

الفصل الثاني: تحوّل الإمبراطورية الرومانية إلى مسيحية

الفصل الثالث: انهيار الإمبراطورية الرومانية

الفصل الثالث: القرون الوسطى

الفصل الرابع: عصر النهضة والتنوير

الفصل الخامس: الثورات الأوروبية

الفصل السادس: الحربان العالميتان

➢ **الباب الرابع: تطوّر الفلسفة الغربية**

الفصل الأول: الفلسفة اليونانية

الفصل الثاني: فلسفة ما قبل القرون الوسطى

الفصل الثالث: الفلسفة المدرسية

الفصل الرابع: الفلسفة الحديثة

الفصل الخامس: الحداثة وما بعدها

➢ **الباب الخامس: منتجات الفكر الغربي**

الفصل الأول: منهجية التعامل مع منتجات الفكر الغربي

الفصل الثاني: المنتجات الفكرية الشمولية

المبحث الأول: الليبرالية

المبحث الثاني: الماركسية

الفصل الثالث: المنتجات الفكرية السياسية

المبحث الأول: الديمقراطية

المبحث الثاني: العلمانية

المبحث الثالث: القومية

الفصل الرابع: المنتجات الفكرية الاقتصادية

المبحث الثالث: الاشتراكية

المبحث الرابع: الرأسمالية

➢ **الباب السادس: الدين والدولة في السياق الغربي**

الفصل الأول: العداوة مع السلطة (المسيحيون الأوائل)

الفصل الثاني: المسيحية والتماهي مع السلطة

الفصل الثالث: المسيحية في خدمة السلطة

الفصل الرابع: المسيحية ما بعد الثورة الفرنسية

➢ **الباب السابع: الغرب وتأسيس العلوم**

الفصل الأول: تأسيس العلوم السياسية

الفصل الثاني: تأسيس علم العلاقات الدولية

الفصل الثالث: تأسيس علم الاقتصاد

الفصل الرابع: تأسيس علم الاجتماع

الفصل الخامس: تأسيس علم النفس

➢ **الباب الثامن: الإسهام الإسلامي في الحضارة الغربية**

الفصل الأول: الإسهام الفلسفي

الفصل الثاني: الإسهام العلمي

الفصل الثالث: الإسهام الأدبي

➢ **الباب التاسع: تاريخ العلاقات الإسلامية الغربية**

الفصل الأول: تاريخ العلاقات المعرفية

الفصل الثاني: تاريخ العلاقات السياسية والاقتصادية

الفصل الثالث: تاريخ العلاقات الاقتصادية.

في البنية العملية

مراكز الأبحاث في إسرائيل ودورها في التأثير على عملية صنع القرار

الدكتور: صالح النعامي
أستاذ العلوم السياسية ـ الجامعة الإسلامية ـ غزة

زاد الاهتمام العالمي بمراكز الأبحاث وتعاظم دورها في رسم السياسات العامة للحكومات، وباتت من الأدوات التي تركن إليها الدول في تحديد متطلبات الحفاظ على أمنها القومي عبر استشراف آفاق المستقبل وفق منظور علمي ومعرفي؛ بما يساعد على استغلال الفرص ومواجهة المخاطر الإستراتيجية. وقد ارتقت تلك المراكز الحديثة إلى حدّ، أصبحت فيه أحد الفاعلين في رسم التوجهات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية وأحد المؤثّرين فيها، وأحد المشاركين في وضع الحلول لها؛ وذلك من خلال توظيف البحث العلمي في خدمة قضايا المجتمع، بتقديم الرؤى وطرح البدائل والخيارات، بما يدعم عمليات صنع القرارات ورسم السياسات(١).

وغدت مراكز الأبحاث جزءا لا يتجزّأ من المشهد السياسي والتنموي في العديد من البلدان المتقدمة، وصارت أداة رئيسة لإنتاج العديد من المشاريع الإستراتيجية الفاعلة، وتسهم في بلورة الخطط لتنفيذها(٢). وتعمل مراكز الأبحاث على تقديم رؤى مستقبلية من أجل النهوض بواقع جديد أو تطوير الواقع الحالي إلى مستوى أفضل، وفق مرجعيات أكاديمية واستراتيجية بعيداً عن الارتجال، أو النظرة الأحادية(٣).

---

(١) خالد محمود، **دور مراكز الأبحاث في الوطن العربي: الواقع الراهن وشروط الانتقال إلى فاعلية أكبر**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، كانون الثاني/يناير ٢٠١٣م، ص١، ينظر الرابط الآتي:
http://www.dohainstitute.org/release/3c6dea13-83af-f95b9cefb574-4ea8--7bd7

(٢) معمر فيصل الخولي، **دور المراكز الأبحاث والدراسات في صنع القرار السياسي: إيران إنموذجاً**، مركز الروابط:
http://rawabetcenter.com/archives/11893 ،2015-9-4

(٣) صالح محمد زكي اللهيبي، **مراكز البحث العلمي نظرة في النشأة والغايات**، مجلة الرافد، على الرابط:
http://www.arrafid.ae/arrafid/p5_8.-2012

وتمثل مراكز الأبحاث القناة الرئيسة التي تمكّن صاحب القرار من التعرّف على الواقع والتخطيط للمستقبل وفق أساس علمي سليم، يأخذ في الاعتبار كل معطيات الواقع، ومؤشرات المستقبل ذات الصلة بموضوع ومضمون القرار(٤).

تمثل مراكز الأبحاث القناة الرئيسة التي تمكّن صاحب القرار من التعرّف على الواقع والتخطيط للمستقبل وفق أساس علمي سليم

وتكتسب مراكز الأبحاث أهمية خاصة لدى الدول والمجتمعات التي هي في حالة صراع مع دول ومجتمعات أخرى، أو لديها شبكة مصالح اقتصادية واسعة ومتشعبة، حيث يفترض أن تسهم مراكز الأبحاث في تمكين النخب الحاكمة في هذه الدول من اتخاذ القرارات التي تضمن تحسين مكانتها في معادلة الصراع، وتساعد الدول الأخرى على الحفاظ على مصالحها الاقتصادية.

وقد أثبت الواقع أن مراكز الأبحاث تزدهر بشكل خاص في البلدان التي تسود فيها قيم الديموقراطية والدول التي لديها شبكة مصالح اقتصادية ذات تقاطعات عالمية(٥). وتحرص النظم الديموقراطية على إيجاد بيئة تحسن من قدرة نخب الحكم على اتخاذ القرارات الإستراتيجية وبلورة السياسات المتعلقة بالدولة. فنظراً لأن نخب الحكم في النظم الديموقراطية تعي أنها ستكون عرضة للمحاسبة؛ في حال تبين أن القرارات التي اتخذتها لم تحقق المصالح القومية أو أنها مست بها، فإنها تلجأ للاستعانة بخدمات الأجسام التي تحسن من قدرتها على اتخاذ القرارات المناسبة، وضمنها مراكز الأبحاث(٦). في الوقت ذاته، فإن مناحي الحرية الذي يفترض أن تضمنه الديموقراطية؛ يسمح لمراكز الأبحاث التي لا ترتبط بدوائر الحكم بمحاولة التأثير على عملية صنع القرار، من خلال تسليط الأضواء على قضايا بعينها ولفت الرأي العام إلى أهميتها، مما قد يضطر دوائر الحكم لاتخاذ موقف إزائها.

وتعد إسرائيل مثالاً للكيانات السياسية التي تعد الاستعانة بخدمات مراكز الأبحاث مركباً أساسياً من عملية صنع القرار فيها، إلى جانب أن نظام الحكم فيها يسمح لهذه المراكز بمحاولة التأثير على توجهات صانعي القرار.

---

(٤) **مراكز البحوث وصناعة التغيير: مطابخ لصناع القرار وخلايا تفكير للإبداع**، شبكة النبأ المعلوماتية، حزيران/يونيو ٢٠٠٩م، ينظر الرابط الآتي:

http://annabaa.org/nbanews/2009/ 60/100.html

(٥) يدلل الجدولان (١) و(٢) التاليين على هذا الواقع، حيث تحتكر دول أمريكا الشمالية وأوروبا أكثر من نصف عدد مراكز الأبحاث في العالم.

(٦) تحاسب نخب الحكم إما بتشكيل لجان تحقيق عامة وغير حكومية، أو عبر خسارتها الاستحقاقات الانتخابية.

ونظراً لحالة الصراع القائم بين إسرائيل والعالم العربي، فإن هناك أهمية كبيرة للإحاطة بخارطة مراكز الأبحاث التي تؤثر على دوائر صنع القرار في إسرائيل، وتفكيك بيئتها ورصد سماتها وتحديد آليات تأثيرها.

يسعى هذا البحث إلى التعرف على خارطة مراكز الابحاث، التي تهتم بدراسة القضايا الإستراتيجية في إسرائيل، وتفكيك بيئتها ورصد سماتها ومحاولة الإحاطة بآليات تأثيرها على عملية صنع القرار؛ ورصد أنماط تعاطيها مع العالم العربي وقضاياه.

نظراً لحالة الصراع القائم بين إسرائيل والعالم العربي، فإن هناك أهمية كبيرة للإحاطة بخارطة مراكز الأبحاث التي تؤثر على دوائر صنع القرار في إسرائيل

أهداف البحث:

ويرمي هذا البحث إلى تحقيق عدد من الأهداف، أهمها:

١. تتبع تطور مراكز الأبحاث في إسرائيل ذات الاهتمام بدراسة القضايا الإستراتيجية.

٢. تفكيك البيئة السياسية والأمنية والاجتماعية لمراكز الأبحاث الإسرائيلية والظروف المؤثرة فيها.

٣. التعرف على خارطة مراكز الأبحاث الإسرائيلية.

٤. رصد الأدوار التي تقوم بها مراكز الأبحاث في التأثير على دوائر صنع القرار.

٥. الإحاطة باتجاهات تعاطي مراكز الأبحاث الإسرائيلية مع العالم العربي وقضاياه.

منهج البحث:

يقع البحث في إطار البحوث الوصفية، ويعنى بوصف خارطة مراكز الأبحاث في إسرائيل وتصنيفاتها. واعتمد الباحث على المنهج التحليلي؛ لتفكيك بيئة مراكز الأبحاث وتحديد آليات تأثيرها على دوائر صنع القرار، والمنهج المقارن من خلال مقارنة واقع مراكز الأبحاث في إسرائيل بواقعها في بيئات سياسية أخرى.

الحد الموضوعي:

يعالج البحث فقط مراكز الأبحاث التي تؤثر على دوائر صنع القرار من خلال تعرضها للقضايا الإستراتيجية التي تؤثر على المجتمع و "الدولة" في إسرائيل، والتي يقابلها في الولايات المتحدة ما يطلق عليها "**think tanks**". ولا يتعرض البحث لمراكز الأبحاث التى تعنى بالقضايا العلمية والتقنية والزراعية...الخ(٧).

على الرغم من أن بعض الأدبيات العربية قد ناقشت مراكز الأبحاث في إسرائيل، إلا أن هذه الأدبيات عالجت بشكل خاص واقع مراكز الأبحاث بشكل عام. ولم يعثر الباحث على دراسة عربية واحدة عنت بمراكز الأبحاث الإسرائيلية التي تؤثر بشكل مباشر على عملية صنع القرار وتطرقت لبيئتها وأنماط تأثيرها، مما يجعل هذا البحث- في تقدير الباحث – غير مسبوق في معالجته.

ويتضمن البحث المحاور التالية:

أولاً: الإطار المفاهيمي والخلفية التاريخية

ثانياً: تطور مراكز الأبحاث في إسرائيل

ثالثا: خارطة مراكز الأبحاث الإسرائيلية

رابعاً: أدوار مراكز الأبحاث

خامساً: مراكز الأبحاث الإسرائيلية والعالم العربي

(٧) حول مناشط البحث العلمي ومراكز الأبحاث التي تعنى بالقضايا الصناعية والزراعية والتقنية ...الخ، أنظر: عدنان أبوعامر، **مراكز البحث العلمي في إسرائيل**، الرياض، مركز البيان للبحوث، ٢٠١٣.

الإطار المفاهيمي والخلفية التاريخية

يكتنف الغموض تعريف مراكز الأبحاث، إما لأن الكثير من هذه المؤسسات لا تعرّف ذاتها على أساس أنها مراكز بحث، وتكتفي بتعريف ذاتها على أساس أنها مؤسسات غير ربحية، أو لأنها تعمل ضمن إطار مؤسسي واسع يُعنى بمجالات اختصاص أخرى إلى جانب مهمة البحث. وتعرّف الموسوعة العالمية مراكز الأبحاث على أنها: "مؤسسات تعنى بإعداد الأبحاث المتعلقة بالسياسات الاجتماعية والسياسات الإستراتيجية والاقتصادية والعسكرية وغيرها، بعض منها تكون منظمات غير ربحية"(٨).

ويعرف "دونالد إبلسون" مراكز الأبحاث بأنها:"هيئات ذات توجه بحثي لا تهدف إلى الربح، ولا تعبر عن توجه حزبي معين – دون أن ينفي ذلك عنها الصفة الأيديولوجية – وتتمثل أهدافها الرئيسة في التأثير على الرأي العام والسياسات العامة"(٩).

ويعرف "جيمس مغان" مراكز الأبحاث بأنها: « مؤسسات تعنى بانتاج الأبحاث الموجهة، وتقديم المشورة بشأن قضايا داخلية وعالمية؛ لتمكين صناع السياسة والجمهور من اتخاذ قرارات بشأن السياسة العامة، وهي تمثل جسراً بين المؤسسات الأكاديمية ودوائر صنع القرار السياسي، وتربط بين الجمهور والحكومة التي تمثله»(١٠).

وتنطلق هذه الورقة في معالجتها لمراكز الأبحاث باعتبارها مؤسسة تعنى بانتاج الأبحاث الهادفة للتأثير على صنع السياسات العامة، سواء بناء على طلب دوائر صنع القرار أو بمبادرة من هذه المراكز ذاتها.

وقد كانت باكورة التوجه لإنشاء مراكز الأبحاث؛ تأسيس المعهد الملكي للدراسات الدفاعية ببريطانيا سنة ١٨٣١ م، وبعده الجمعية الفابية سنة ١٨٨٤م(١١).

---

(٨) https://en.wikipedia.org/wiki/Think_tank

(٩) Abelson , Donald E . (2002) , Think Tanks and U.S . Foreign Policy : November. P. 10

(١٠) McGann, James, Think Tanks and Policy Advice in The US, Foreign Policy Research Institute, Philadelphia, August, 2005,p5

(١١) صالح محمد زكي اللهيبي، مرجع سابق

وقد ظهر أول مركز أبحاث حديث عام ١٩١٠، وهو **معهد كارنيغي للسلام**، وتلاه **مركز بروكينز** عام ١٩١٦، ثم **معهد هوفر** عام ١٩١٨. وأفضى اندلاع الحرب الباردة إلى اتساع دائرة مراكز الأبحاث وتطور اهتماماتها في الولايات المتحدة وأوروبا، فتأسس **معهد إنتربرايز** عام ١٩٤٣، و**معهد دراسات الشرق الأوسط** عام ١٩٤٨، **ومؤسسة راند** عام ١٩٤٨، وكلها في واشنطن، و**المعهد الدولي للدراسات الإستراتيجية** في لندن عام ١٩٥٨[١٢].

وقد تعاظم الاهتمام بمراكز الأبحاث في العالم بشكل كبير، لدرجة أن عددها بلغ في نهاية عام ٢٠١٤ حوالي **٦٦١٨** مركز، في **١٨٢ دولة**.

جدول (١) يبين عدد مراكز الأبحاث في العالم لعام ٢٠١٤

المنطقة	عدد المراكز
أمريكا الشمالية	1989
أوروبا	1822
آسيا	1106
أمريكا اللاتينية	674
الشرق الأوسط وشمال أفريقيا	521
أفريقيا	467

المصدر:

McGann, James,2014 Global Go to Think Tank Index Report, University of Pennsylvania,2015.p53

(١٢) المرجع السابق

وعلى الرغم من أن هناك أسباب متفاوتة وراء زيادة الاهتمام بتدشين مراكز الأبحاث، إلا أن أهم العوامل التي أسهمت في زيادة عددها وتعاظم تأثيرها؛ تمثلت في انهيار القطبية الثنائية وظهور العولمة وحدوث تحولات اقتصادية وأمنية في بعض الدول ترافقت مع بروز تحديات جديدة(١٣). ومن الواضح أن طابع النظام السياسي والمكانة العالمية وحجم الاقتصاد؛ من العوامل التي تلعب دوراً في بروز دور مراكز الأبحاث ويعزز من مكانتها. ويقول "ريتشارد هاس"، الذي شغل مناصب رفيعة في وزارتي الخارجية والدفاع الأمريكية: « تشكل مراكز الأبحاث عيوناً وآذانا للولايات المتحدة في أكثر الأوقات صعوبة»(١٤).

تشكل مراكز الأبحاث عيوناً وآذانا للولايات المتحدة في أكثر الأوقات صعوبة

تطور مراكز الأبحاث الإسرائيلية

بدأ الاهتمام الإسرائيلي بمراكز الأبحاث التي تعنى بالقضايا الإستراتيجية وتهدف للتأثير على دوائر صنع القرار متأخراً نسبياً، حيث أن مركز الأبحاث الوحيد الذي تم تدشينه مع الإعلان عن الكيان الصهيوني عام ١٩٤٨، وكان وما يزال ذا طابع مؤسساتي وسري؛ هو " **لواء الأبحاث** "، التابع لشعبة الاستخبارات العسكرية " أمان"، الذي يعد أكبر جهاز استخباري إسرائيلي. وعلى الرغم من طابع عمله السري، كونه جزءاً من المنظومة الاستخبارية، فإن "لواء الأبحاث" يحتكر، حتى الآن، بحكم القانون، مهمة تقديم "التقديرات الإستراتيجية" لصناع القرار(١٥).

وقد منحت كل من الحركة الصهيونية وإسرائيل الأولية لتدشين مراكز البحث العلمي، على اعتبار أنها تسهم بشكل مباشر في تعزيز المنعة العسكرية والاقتصادية للكيان الصهيوني. **وهذا ما يفسر حقيقة أن الحركة الصهيونية قد شرعت في تدشين مراكز البحث العلمي قبل أكثر من عقدين على الإعلان عن قيام إسرائيل**(١٦).

---

(١٣) خالد محمود، مرجع سابق.

(١٤) Hass, Richard N.(2002) Think Tanks and U.S. Foreign Policy : A Policy – Makers Perspective , November , pp. 5.

(١٥) موقع شعبة الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية :
https://www.aman.idf.il/Modiin/Maslul.aspx?catId=60570&docId=72278

(١٦) للاطلاع على واقع اهتمام إسرائيل بمراكز البحث التي تعنى بالقضايا العلمية والتقنية والصناعية، انظر: بديكات متسفام شل مخوني همحكار هممشلتييم (**فحص أوضاع مراكز الأبحاث الحكومية**)، تقرير صادر عن لجنة الأبحاث والعلوم في الكنيست (البرلمان الإسرائيلي)، ١٢-٩-٢٠٠٦.

وقد تم تدشين أول مركز أبحاث مستقل يعنى ببحث القضايا الإستراتيجية ويهدف إلى مساعدة صناع القرار على اتخاذ القرارات المهمة عام ١٩٦٥، على يد الرئيس الأسبق لجهاز «الاستخبارات والمهام الخاصة» (الموساد) "رؤفين شيلواح"، حيث حمل هذا المركز في البداية اسمه، وقد ألحق بجامعة تل أبيب وتم تغيير اسمه إلى «مركز ديان لأبحاث الشرق الأوسط وأفريقيا[١٧]. وقد كان هدف شيلواح المعلن أن يسهم هذا المركز في تحسين قدرة صناع القرار في تل أبيب على مواجهة العالم العربي[١٨].

وقد مثلت حرب ١٩٧٣ نقطة تحول فارقة نحو الاهتمام بتدشين مراكز الأبحاث المؤسساتية والمستقلة التي تعنى بتقديم الاستشارات لدوائر صنع القرار أو تسعى للتأثير عليها.

ونظراً للصدمة التي تلقتها إسرائيل خلال الحرب، فقد أوصت لجنة "غرانات" التي حققت في أوجه قصور إسرائيل في الحرب بتشكيل مراكز أبحاث تعنى بتقديم المشورة لدوائر صنع القرار حول سبل التعاطي مع التحديات الإستراتيجية التي تواجه إسرائيل[١٩].

وقد أفضى وصول اليمين للحكم في إسرائيل لأول مرة عام ١٩٧٧، وشروعه في تبني الرأسمالية كنظام اقتصادي، وتوجهه الواسع للخصخصة؛ إلى زيادة الوعي بضرورة دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية وتأثيرها على منعة إسرائيل، وهو ما أفضى إلى تدشين مراكز أبحاث مستقلة وجامعية تعنى بشكل خاص بالتأثيرات الإستراتيجية لهذه التحولات.

ومن الصعب تحديد العدد الإجمالي لمراكز الأبحاث التي تعنى بالقضايا الإستراتيجية، سواء كانت مستقلة أو أكاديمية، بسبب الإشكالية المتمثلة في تعريف هذه المراكز لذاتها. وقد خلصت ندوة نظمها "مركز أبحاث الأمن القومي" بتاريخ ٢٢-١-٢٠١٤، وشارك فيها رؤساء عدد من مراكز الأبحاث الرائدة في إسرائيل وجمع من كبار الباحثين؛ إلى أنه يكاد من المستحيل تحديد عدد مراكز الأبحاث التي تقابل "مراكز التفكير" في الولايات المتحدة، وذلك لأن بعض هذه المراكز لا يعرف ذاته على على هذا النحو، بالإضافة إلى حقيقة أن بعض هذه المراكز تعد وحدات تعمل ضمن مؤسسات أوسع تمارس أنشطة أخرى [٢٠].

لكن دراسة أمريكية تقدر عدد مراكز الأبحاث الإسرائيلية ذات الطابع الإستراتيجي بـ 56

---

(١٧) مركز ''ديان'' الإسرائيلي: تفتيت واختراق العالم العربي بالبحوث العلمية،الموقع العربي للدفاع والتسليح، على الرابط التالي:
http://defense-arab.com/vb/threads/37508/

(١٨) المرجع السابق.

(١٩) شلومو غازيت، بطؤوم بملكوديت (**فجأة وقعنا في ورطة**)، تل أبيب، زميرا بيتان، ١٩٩٩، ص ٥٨.

(٢٠) أنظر استخلاصات الندوة:
http://heb.inss.org.il/index.aspx?id=4351&eventid=6601

جدول (٢) عدد مراكز الأبحاث في إسرائيل مقارنة بدول أخرى:

الدولة	عدد مراكز الأبحاث
الولايات المتحدة	1830
الصين	429
المملكة المتحدة	287
ألمانيا	194
الهند	192
فرنسا	177
الأرجنتين	137
روسيا	112
اليابان	108
كندا	99
إيطاليا	92
جنوب أفريقيا	87
البرازيل	82
مصر	57
نيوزلندا	57
إسرائيل	56

المصدر:

McGann, James,2014 Global Go to Think Tank Index Report, University of Pennsylvania,2015.p54

بيئة مراكز الأبحاث في إسرائيل:

تشمل البيئة الداخلية لمراكز الأبحاث في إسرائيل المركبات التالية:

➢ **أولاً**: يسمح الطابع "الديموقراطي" لنظام الحكم في إسرائيل بتدشين مراكز الأبحاث، ويضمن حرية عملها، ويسمح لها بمحاولة التأثير على عملية صنع القرار واتجاهات المجتمع من السياسات العامة(٢١).

➢ **ثانياً**: تنطلق النظرية الأمنية الإسرائيلية من افتراض مفاده: أن الكيان الصهيوني في حالة صراع دائم مع محيطه العربي، وأن هذا الصراع يجعل هذا الكيان دوماً عرضة لتهديدات إستراتيجية ووجودية، مما يستدعي توفير الظروف التي تضمن تحسين قدرة دوائر الحكم على اتخاذ القرارات المهمة(٢٢). وقد أفضى هذا الواقع إلى اندماج مراكز الأبحاث في بيئة صنع القرار السياسي في تل أبيب، وعزز من قيمة نتاجها الذي يطال السياسات العامة للدولة وتوجهاتها الإستراتيجية. وقد أسهمت التحديات الأمنية التي تفجرت في الساحة الفلسطينية، والتحولات المتلاحقة التي يشهدها العالم العربي من قيمة التقديرات التي تقدمها مراكز الأبحاث، سيما في ظل تعاظم مستوى الانتقادات لأداء الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة في التعاطي هذه التحديات وتلك التحولات.

تنطلق النظرية الأمنية الإسرائيلية من افتراض مفاده أن الكيان الصهيوني في حالة صراع دائم مع محيطه العربي

➢ **ثالثاً**: عزز الاستقطاب السياسي والأيديولوجي والحزبي في المجتمع الإسرائيلي من مكانة وبيئة عمل مراكز الأبحاث(٢٣). فقد رفع هذا الواقع من مكانة التقديرات التي تنجزها هذه المراكز، حيث أن كلاً من وسائل الإعلام والرأي العام يضفيان قدراً من الصدقية على تقديرات هذه المراكز باعتبار أنها تساعد على بلورة موقف من تباين رؤى ومواقف الحكومة والمعارضة من المخاطر الإستراتيجية والتحولات الإقليمية.

---

(٢١) إن أوضح مثال على دور طابع نظام الحكم في التأثير على واقع مراكز الأبحاث حقيقة؛ أن بعض مراكز الأبحاث قد دشنت نتاج التوصيات التي قدمتها لجنة التحقيق الرسمية التي حققت في مظاهر القصور الإسرائيلي في حرب ١٩٧٣، ومن الواضح أنه لولا الطابع "الديموقراطي" لنظام الحكم لما كان بالإمكان مساءلة دوائر الحكم وإجبارها على تدشين مراكز الأبحاث. ضمن أهم مراكز الأبحاث التي أعلن عن تدشينها بناء على توصيات اللجنة كان "مركز البحوث السياسية"، التابع لوزارة الخارجية. انظر: **شلومو غازيت**، مرجع سابق

(٢٢) رؤفين بيدهتسور، تربوت هبيطحون، مكورتيها فشعبتاه على هديموكراتيا هيسرائيليت (**ثقافة الأمن الإسرائيلية، مصادرها وتأثيراتها على الديموقراطية الإسرائيلية**)، فصليلة بوبوليتيكا، عدد ٦٤، كانون أول ٢٠٠٣، ص ١٨.

(٢٣) لم يحدث أن تمكن حزب من الحصول على الأغلبية المطلقة في البرلمان، ولم تتمكن حكومة من استكمال مدة حكمها إلا مرتين.

خارطة مراكز الأبحاث الإسرائيلية

يمكن تصنيف مراكز الأبحاث الإستراتيجية في إسرائيل وفق مستوى علاقتها بمؤسسة الحكم، فهناك مراكز أبحاث مؤسساتية؛ تعد جزءاً من منظومة الحكم، وهناك مراكز أبحاث مستقلة وأكاديمية.

مراكز الأبحاث المؤسساتية

تعد جزءًا من مؤسسة الحكم، وتقدم استشاراتها لدوائر صنع القرار السياسي بحكم القانون. وتعتبر جميع هذه المراكز استخبارية وتعمل في إطار من السرية. وتضم: "**لواء الأبحاث**" التابع لشعبة الاستخبارات العسكرية "أمان"، ومركز الأبحاث التابع لجهاز "الاستخبارات والمهام الخاصة" (**الموساد**)، ومركز الأبحاث التابع لجهاز المخابرات الداخلية "**الشاباك**"، و"**مركز البحوث السياسية**" التابع لوزارة الخارجية. تتولى هذه المراكز تقديم تقديرات إستراتيجية حول المخاطر والفرص التي تنجم عن التحولات الداخلية والإقليمية والعالمية. وتؤثر التقديرات التي تعدها هذه المراكز على اتجاهات الجهد الحربي والدبلوماسي والسياسي للحكومات الإسرائيلية.

يعد "لواء الأبحاث" أهم مراكز الأبحاث في إسرائيل وأكثرها تأثيراً على دوائر صنع القرار

ويعد "**لواء الأبحاث**" أهم مراكز الأبحاث في إسرائيل وأكثرها تأثيراً على دوائر صنع القرار، ويليه بمراحل كبيرة "**مركز الأبحاث السياسية**" التابع لوزارة الخارجية، لدوره في مساعدة صانع القرار السياسي في بلورة المواقف إزاء المحيط العربي.

"لواء الأبحاث" في شعبة الاستخبارات العسكرية

يعد أكثر مراكز الأبحاث تأثيراً على دوائر صنع القرار؛ لأنه يحتكر، بحكم القانون، مهمة إعداد التقديرات الإستراتيجية للدولة وتقديمها لدوائر صنع القرار السياسي، وهو ما جعل قائد هذا المركز يوصف بـ "المقدر الوطني"[٢٤]. ومما عزز من مكانة هذا المركز حقيقة أنه يتبع شعبة الاستخبارات العسكرية المعروفة بـ "أمان"، الذي يعد أكبر الأجهزة الاستخبارية في الكيان الصهيوني، وأوسع أذرع في الجيش[٢٥].

---

(٢٤) عاموس جلبوع، أنانوميم بزمان يحسي هتسيبور(**مجهولون في زمن العلاقات العامة**)، معاريف، ١-٩-٢٠٠٨.

(٢٥) للإحاطة بأهمية هذا الجهاز، أنظر: يوسيف أغرمان، روش أمان فهموح هيهودي(**رئيس أمان والعقل اليهودي**):
http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-3984526,00.html ,19-11-2010

مهام لواء الأبحاث:

➤ يصيغ التقديرات الإستراتيجية، والتي تتضمن خارطتي التهديدات الإستراتيجية وقائمة الفرص التي يتوجب على الدولة مواجهتها أو استغلالها(٢٦).

➤ تطال اختصاصاته جميع القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتكنلوجية؛ ذات التأثير الإستراتيجي على الأمن القومي، سواءً كانت متعلقة بإسرائيل أو بالدول والجماعات التي تشكل مصادر تهديد لها أو تربطها بها علاقات إستراتيجية(٢٧). ويعني ذلك أن إسرائيل تشذ عما هو سائد في الدول الديموقراطية، التي لا تمنح أجساماً أمنية الحق في تقديم تقديرات تتعلق بقضايا ذات طابع مدني.

➤ يحلل المعلومات الاستخبارية التي يجمعها «أمان» والأجهزة الاستخبارية الأخرى، ويستند إلى هذا التحليل في تقديم إنذارات حول طابع المخاطر الآنية التي تهدد إسرائيل، سواءً كانت على شكل عمل عسكري تخطط له منظمة أو حرب تعكف دولة عدو على الإعداد لها.

➤ يعد "**لواء الأبحاث**" المسؤول عن إعداد بنود الأهداف، التي يتوجب على الجيش الإسرائيلي ضربها أثناء الحملات العسكرية والحروب، بشكل يساعد على تحقيق الأهداف السياسية التي ترى دوائر صنع القرار وجوب تحقيقها في أعقاب شن الحملات والحروب(٢٨). ويملك اللواء صلاحية الطلب من جميع الأجهزة الاستخبارية معلومات استخبارية إضافية من أجل مساعدته على انجاز العملية البحثية التي يتطلبها بناء تقديراته الإستراتيجية(٢٩).

➤ يقدم توصيات تتعلق بإحداث تعديلات على النظرية الأمنية للدولة والعقيدة القتالية للجيش بناء على تصوره لخارطة التهديدات والفرص، علاوة على إسهامه في بناء الخطط متعددة السنين التي يعدها الجيش وتتعلق بالتغييرات التي يرى وجوب إدخالها على بناء الجيش وإمكانياته(٣٠).

---

(٢٦) مقابلة أجرتها مع العميد يوسي بايدتس، القائد الأسبق للواء الأبحاث، مجلة ''مباط عال''، الصادرة عن ''مركز أبحاث الأمن القومي''، عدد ٥٨، ٢٠١١، ص ص ٣٩-٤٠

(٢٧) المرجع السابق

(٢٨) رون بن يشاي، هوديعين ٢٠١٤ (**الاستخبارات في ٢٠١٤**)، يديعوت أحرنوت، 14-4-2014، http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-4509980,00.html

(٢٩) المرجع السابق

(٣٠) المرجع السابق.

➤ حتى تفجر ثورات الربيع العربي في ٢٠١٠؛ كان "لواء الأبحاث" يقدم تقديراً إستراتيجياً مطلع كل عام للحكومة حول المخاطر والفرص التي واجهتها إسرائيل خلال العام المنصرم، وتقدير مستوى النجاح الذي تحقق في مواجهة هذه المخاطر واستغلال تلك الفرص، إلى جانب استشراف خارطة المصالح والفرص في العام الجديد، وتقديم توصيات لتحسين قدرة إسرائيل على التعامل مع هذه الخارطة[٣١] وبعد تفجر الثورات العربية أصبح المركز يقدم تقديراً إستراتيجياً كل ستة أشهر[٣٢].

➤ إن أوضح مثال دلل على التأثير الطاغي للواء الأبحاث على دوائر صنع القرار؛ كان موقف قائد هذا اللواء أثناء اندلاع انتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠، العميد عاموس جلعاد[٣٣]، الذي خلص عند اندلاع الانتفاضة إلى استنتاج، خالفه فيه كل من قائد شعبة الاستخبارات العسكرية، الجنرال عاموس مالكا، الذي عمل جلعاد تحت إمرته، ورئيس جهاز الموساد إفرايم هليفي وقادة كبار في الجيش والشاباك. فقد زعم جلعاد أن الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات أوعز بتفجير الانتفاضة وأنه اختار طريق «الإرهاب» بشكل نهائي، وأنه لا يمكن ضمان الهدوء والأمن في الضفة الغربية وقطاع غزة واستقرار العلاقة مع الفلسطينيين في ظل وجود عرفات[٣٤]. وقد تحولت إفادات جلعاد أمام الحكومة ولجنة الخارجية والأمن التابعة للبرلمان إلى فرصة مكنت جلعاد من التأثير على موقف الرأي العام الإسرائيلي من عرفات.

➤ إن ما يدلل على خطورة ومركزية الدور الذي يلعبه لواء الأبحاث حقيقة؛ أن تقديراته الخاطئة تسببت بانتكاسات لإسرائيل. فقد حملت لجنة «غرانات» التي حققت في أداء الجيش الإسرائيلي خلال حرب ١٩٧٣ قائد لواء الأبحاث أثناء الحرب العميد آرييه شيلف جزءاً كبيراً من المسؤولية عن الفشل الإسرائيلي في هذه الحرب؛ لأنه قدم تقديراً للحكومية عشية الحرب يفيد بعدم نية مصر لشن الحرب، على الرغم من أنه كان لدى الاستخبارات معلومات دقيقة وتفصيلية حول نية المصريين والسوريين شن الحرب[٣٥].

---

(٣١) هذا ما كشفته بروتوكلات لجنة غرانات، أنظر يسرائيل هيوم، ٢٨-١٠-٢٠١٢،
http://www.israelhayom.co.il/site/newsletter_article.php?id=22812&hp=1&newsletter=28.10.2012

(٣٢) مقابلة مع العميد إيلي بن مئير، القائد السابق للواء الأبحاث. أنظر: أمير بوحبوط، همعريخ هلئومي مرجيع: كريكغ إيران هي لو أيوم كيومي(**المقدر الوطني يطمئن: إيران الآن لم تعد تهديد وجودي**)، موقع وللا، ١٥-٩-٢٠١٥،
http://news.walla.co.il/item/2889794

(٣٣) يشغل حالياً منصب مدير الدائرة السياسية والأمنية في وزار الحرب الإسرائيلية، ومسؤول ملف العلاقات مع مصر.

(٣٤) عاموس هارئيل و آفي سيخاروف، هملحما هشفيعيت (**الحرب السابعة**)، يديعوت أحرنوت، تل أبيب، ٢٠٠٥، ص ٣٦

(٣٥) المرجع السابق

الهيكل التنظيمي للواء الأبحاث، وإعداد الباحثين العسكريين:

يقود اللواء ضابط برتبة عميد، يعمل إلى جانب مساعد برتبة عقيد، ويضم اللواء خمس وحدات بحث تختص كل وحدة بنطاق إقليمي، يمثل إما مصدر تهديد لإسرائيل أو تشكل العلاقة معه مصلحة إستراتيجية لها. ويطلق على كل وحدة بحث (ساحة)، وهي على النحو التالي: ساحة (مصر والأردن)، الساحة اللبنانية السورية، الساحة الفلسطينية، الساحة الإيرانية، وساحة حركات الجهاد العالمي[٣٦].

ويقود كل ساحة باحث عسكري برتبة عقيد، يعمل تحت إمرته العشرات من الباحثين الذين يتولون استقبال كل المعلومات الاستخبارية التي تجمعها الأجهزة الاستخبارية عن الساحة الموكلين بها، ويشرعون في تحليل هذه المعلومات؛ لاستنباط صورة واضحة عن هذه الساحة وخارطة التهديدات والفرص فيها، وعلى أساس هذه الصورة تقوم كل ساحة بإعداد توصياتها للمستوى السياسي في تل أبيب بشأن أنماط الردود الإسرائيلية على هذه التهديدات وتلك الفرص[٣٧].

وينشر لواء الأبحاث إعلانات تدعو الشباب عشية التجنيد الإجباري للانضمام للعمل كباحثين عسكريين، بعد إعدادهم حسب التخصصات ومجالات البحث[٣٨].

---

(٣٦) رون بن يشاي، مرجع سابق

(٣٧) المرجع السابق

(٣٨) يتضمن مسار الإعداد دورات لاتقان اللغات الأجنبية، حيث يتم التركيز على اللغتين العربية والفارسية، ودورات لإعداد باحثين قادرين على التعاطي مع الصور والأفلام التي تجمعها منظومات جمع المعلومات التكنلوجية وأمن المعلومات والحرب الإلكترونية. ووفي حال اختار الجنود والضباط البقاء في الخدمة النظامية بعد انقضاء الخدمة الإجبارية التي تستمر لثلاث سنوات، فإنه تفتح أمامهم مسارات إعداد مهنية أكثر تطوراً وتخصصاً في كل مجالات البحثية، علاوة على أن اللواء يلزم المنتسبين له بالالتحاق ببرامج تأهيلية للحصول على تأهيل أكاديمي في مجالات تخصصهم أثناء الخدمة العسكرية بعد التعاقد مع جامعات إسرائيلية. أنظر: نص إعلان نشره اللواء على موقع شعبة الاستخبارات العسكرية لترغيب الشباب بالانضمام إليه:
https://www.aman.idf.il/Modiin/Maslul.aspx?catId=60570&docId=72278

"مركز الأبحاث السياسية" التابع لوزارة الخارجية

يعد «مركز الأبحاث السياسية» التابع لوزارة الخارجية ذراعاً بحثياً واستخبارياً لإسرائيل يلعب دوراً مركزياً في تقديم التوصيات للمستوى السياسي الحاكم بشأن السياسة الخارجية، ويسهم في بلورة التقديرات الإستراتيجية المتعلقة بالبيئة الإقليمية والدولية لإسرائيل(٣٩).

ويتم التعامل مع المركز على أساس أنه جزء من المنظومة الاستخبارية الإسرائيلية، مما جعل عمله يتسم بالطابع السري، إذ يتم فرض تكتم على طابع عمله والقضايا التي يبحثها والأوراق التي يعدها والتوصيات التي يقدمها للمستوى السياسي(٤٠). وقد تم تأسيس المركز عام ١٩٧٤ بناء على توصيات لجنة «غرانات» التي حققت في أسباب الفشل الإسرائيلي في حرب ١٩٧٣.

وتعرّف وزارة الخارجية «مركز الأبحاث السياسية» بأنه: «جسم عمل متخصص في بحث سياسات وقضايا تؤثر على المصالح الإستراتيجية لإسرائيل، ويتناول الأنشطة السياسية والدبلوماسية»(٤١).

ويتضح من هيكلية المركز أنه يولي أهمية قصوى لدراسة طابع التحولات في الشرق الأوسط واستشراف مآلاتها وانعكاساتها المحتملة على إسرائيل.

---

(٣٩) شلومو غازيت، مرجع سابق

(٤٠) الموسوعة العالمية: https://he.wikipedia.org/wiki/%D7

(٤١) موقع وزارة الخارجية الإسرائيلي
http://mfa.gov.il/MFAHEB/AboutUs/Divisions/Pages/mamad.aspx

➢ ويتكون المركز من أربع وحدات:(٤٢)

١. وحدة الشرق الأوسط
٢. الوحدة الدولية
٣. وحدة التحولات الاقتصادية والإستراتيجية
٤. وحدة جمع المعلومات(٤٣)

➢ وتتشكل وحدة الشرق الأوسط من أربعة أقسام:(٤٤)

١. مصر، المغرب العربي، السودان.
٢. الأردن، الفلسطينيون
٣. السعودية، الخليج، العراق، إيران
٤. سوريا، لبنان

➢ وتتشكل الوحدة الدولية من:

١. الولايات المتحدة وأوروبا
٢. روسيا، آسيا

(٤٢) المرجع السابق
(٤٣) يطلق عليها إيتان
(٤٤) غازيت، شلومو، مرجع سابق

ويلعب المركز دوراً في جمع المعلومات الاستخبارية من خلال ممثليه العاملين في سفارات وقناصل إسرائيل في أرجاء العالم، حيث يهدف جمع هذه المعلومات إلى المساعدة على تقييم واقع السياسة الخارجية والعلاقات مع الدول الأجنبية(٤٥). وبسبب طابعه لاستخباري، فإن المركز يستفيد من المعلومات الاستخبارية التي تجمعها الأجهزة الاستخبارية الأخرى، علاوة على أنه يرتبط بعلاقات عمل مباشرة مع مراكز الأبحاث في هذه الأجهزة.

يلعب المركز دوراً في جمع المعلومات الاستخبارية من خلال ممثليه العاملين في سفارات وقناصل إسرائيل في أرجاء العالم

ويهدف المركز إلى تحسين أداء السفارات والقنصليات الإسرائيلية في أرجاء العالم ويعمل بشكل متواصل معها، علاوة على أنه يلعب دوراً مركزياً في اطلاع السفراء القناصل الأجانب على قضايا وتطورات بما يخدم المصالح الإسرائيلية.

وفي أوقات متباعدة يتم الكشف عن بعض التوصيات التي يصدرها المركز في تغطية وسائل الإعلام الإسرائيلي، سيما بعدما يقدم ممثلو المركز تصوراتهم أمام لجان محددة في البرلمان، سيما «لجنة الخارجية والأمن».

(٤٥) المرجع السابق

مراكز الأبحاث المستقلة

تعمل بشكل مستقل عن الحكومة، وتعرّف نفسها على أنها منظمات غير حكومية وغير ربحية، تعتمد في تمويلها على تبرعات تقدمها بشكل أساس هيئات تدعم البحث العلمي ورجال أعمال يهود من أرجاء العالم، سيما في الولايات المتحدة[٤٦]. وتهتم مراكز الأبحاث المستقلة بجملة واسعة من القضايا التي تؤثر على الأمن «القومي»، وتعنى بطرح بدائل إستراتيجية لسياسات الحكومة القائمة، أو عبر المبادرة بطرح قضايا وتحديات لم تتعرض لها دوائر صنع القرار.

وقد اهتمت دوائر صنع القرار السياسي في العقدين الماضيين بشكل كبير ولافت بأنشطة مراكز البحث المستقلة، حيث يحرص كبار المسؤولين بدءًا من رئيس الوزراء ومرورًا بالوزراء والمشرعين وكبار موظفي الدولة وقادة الجيش على حضور المؤتمرات التي تنظمها مراكز البحث المستقلة، على وجه الخصوص «مركز أبحاث الأمن القومي».

ويستغل رؤساء الوزراء المؤتمرات السنوية التي يعقدها بشكل خاص «مركز أبحاث الأمن القومي» و «مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات» للكشف لأول مرة عن مخططاتهم ومبادراتهم السياسية؛ كما فعل رئيس الوزراء الأسبق أرئيل شارون الذي كشف في مارس ٢٠٠٥ عن توجهه لتنفيذ خطة «فك الارتباط» وتدمير المستوطنات القائمة في قطاع غزة، أثناء مشاركته في «مؤتمر الحصانة القومية»، الذي نظمه «مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات» عام ٢٠٠٤.

(٤٦) هارتس: 14-1-2015، http://blogs.haaretz.co.il/taliherutisover/2345

مراكز الأبحاث الجامعية

تتبع الجامعات، وتحصل على تمويل من الموازنة الحكومية المخصصة للتعليم العالي، إلى جانب حصولها على تبرعات تقدمها هيئات تدعم البحث العلمي ورجال أعمال يهود في الخارج. من أهم مراكز الأبحاث الجامعية: «مركز ديان لدراسة الشرق الأوسط وأفريقيا» التابع لجامعة تل أبيب، و«مركز بيغن السادات للدراسات الإستراتيجية»، التابع لجامعة بار إيلان(٤٧).

أدوار مراكز الأبحاث

تصمم مراكز الأبحاث المستقلة ومعظم مراكز الأبحاث الأكاديمية الدراسات والمناشط البحثية التي تقوم بها من أجل أن تسهم بشكل مباشر في إفادة دوائر صنع القرار والأوساط المهنية التي تعمل إلى جانبها، وهو ما جعل هذه المراكز تلتزم بنمط كتابة لا يتقيد بالمعايير الأكاديمية التقليدية، حتى يكون نص قصيراً، وذلك من أجل مساعدة دوائر صنع القرار للإفادة منها بشكل يسير(٤٨).

---

(٤٧) انظر ملحق يتضمن أهم مراكز الأبحاث الجامعية

(٤٨) هذا ما أجمع عليه رؤساء عدد من مراكز الأبحاث الرائدة في إسرائيل، أنظر: مكومام شل مخوني همحكار بتهلخي كبلات هحلطوت بيسرائيل (**مكان مراكز التفكير في عملية صنع القرار في إسرائيل**)، بتاريخ ٢٢-١-٢٠١٤،، على الرابط:
http://heb.inss.org.il/index.aspx?id=4351&eventid=6601

ويتضح أن مراكز الأبحاث المستقلة والأكاديمية تقوم بعدة أدوار تسهم بشكل مباشر أو غير مباشر في التأثير على بيئة عملية صنع القرار، من خلال التالي:

➢ **أولاً**: إعداد الأبحاث وإصدار الدوريات البحثية، وتنظيم المؤتمرات السنوية لمناقشة قضايا عامة ومؤتمرات غير دورية لمناقشة قضايا محددة.

➢ **ثانياً**: تستغل الحكومة ومؤسساتها المختلفة ذات العلاقة نتاج هذه المراكز في بناء إستراتيجيات لمواجهة بعض التحديات الداخلية والإقليمية(٤٩).

➢ **ثالثاً**: مد المؤسسات المرتبطة بدوائر صنع القرار بباحثين للعمل كاستشاريين بشكل دائم أو مؤقت للإفادة من خبراتهم(٥٠).

➢ **رابعاً**: تلعب مراكز الأبحاث المستقلة والأكاديمية دوراً مهماً في تصميم وتنفيذ المسارات المهنية والدورات التي يحصل عليها منتسبو الأجهزة الاستخبارية والسلك الدبلوماسي(٥١).

➢ **خامساً**: التأثير على توجهات الحكومة من خلال إثارة قضايا ذات تأثير إستراتيجي، سواءً عبر تنظيم المؤتمرات السنوية التي تبحث طيفاً واسعاً من القضايا، أو من خلال تنظيم المؤتمرات التي تبحث قضايا محددة، واعداد الأوراق البحثية. ففي هذه المؤتمرات يُطالَب صناع القرار بتقديم ردود على ما يتم طرحه من قبل الباحثين وممثلي المعارضة(٥٢).

➢ **سادساً**: تقديم تصورات حول خارطة المخاطر الإستراتيجية التي يتوجب على الدولة مواجهتها وحصر نوافذ الفرص، التي يتوجب استغلالها؛ وطرح بدائل لإستراتيجيات وسياسات معتمدة من قبل الحكومة(٥٣).

---

(٤٩) المرجع السابق

(٥٠) المرجع السابق.

(٥١) صحيفة ميكور ريشو،
http://www.nrg.co.il/online/1/ART1html?hp=1&loc=3&tmp=6186 ،2009-10-21

(٥٢) مثل التركيز على تداعيات التحولات المتلاحقة في العالم العربي، ومستجدات العلاقة مع الولايات المتحدة، وأنماط مقترح لاستغلال اقتصاديات الطاقة سيما بعد الاكتشافات الضخمة للغاز الطبيعي، والتغيير على مواقف يهود العالم من إسرائيل.

(٥٣) انظر جدول (٧) يتضمن عناوين لأوراق بحثية قدمت لمؤتمرين سنويين نظمها "مركز أبحاث الأمن القومي" و "مركز هرتسليا".

➤ **سابعاً**: إحداث تغيير على توجهات الرأي العام من قضايا محددة؛ عبر إثارة اهتمام وسائل الإعلام التقليدي والجديد بالنتائج التي توصلت إليها الدراسات التي أجرتها هذه المراكز وتناولت هذه القضايا.

➤ **ثامناً**: تعتمد النتائج التي تصل إليها لجان التحقيق التي يتم تشكيلها للتحقيق في أوجه القصور الإستراتيجي في أداء الدولة والجيش، ضمن مؤثرات أخرى، على استشارات وتوصيات تقدمها مراكز الابحاث بناءً على طلب هذه اللجان. وقد مثل انطلاق انتفاضة الأقصى في أكتوبر ٢٠٠٠ نقطة تحول فارقة في دور مراكز الأبحاث في تقديم الاستشارات والتوصيات للجان التحقيق الرسمية. فقد لعبت مراكز الأبحاث دوراً مهماً في مساعدة لجان التحقيق التي تقصت سلوك الحكومة والجيش في حربي لبنان الثانية ٢٠٠٦[٥٤]. ونظراً لأن لجنة الخارجية والأمن التابعة للبرلمان ولجانها الفرعية تعمل على مراقبة أداء الجيش والأجهزة الاستخبارية وأداء الحكومة السياسية، فإنها تعمل بشكل وثيق مع عدد من مراكز الأبحاث، وفي أحيان مع باحثي هذه المراكز بشكل فردي[٥٥].

➤ **تاسعاً**: تقوم المنظمات اليهودية واللوبي المساند لإسرائيل في الولايات المتحدة بدعوة الباحثين الإسرائيليين لتقديم وجهة نظر «مهنية» أمام نواب الكونغرس وأركان الإدارة؛ لدعم الموقف الإسرائيلي من أجل تبرير زيادة الدعم المادي والسياسي والعسكري لإسرائيل[٥٦].

---

(٥٤) عاموس هارئيل وآفي سيخاروف، مرجع سابق.

(٥٥) يشهد عوفر شيلح، عضو لجنة الخارجية والأمن، الذي ينتمي إلى حزب "ييش عتيد" بأن لجنة التحقيق التي حققت في مسار الحرب على غزة في صيف ٢٠١٤ قد استعانت كثيراً برؤى وتصورات مراكز الأبحاث الرائدة. أنظر يديعوت أحرنوت، ٩-١-٢٠١٦.

(٥٦) استمعت لجان الكونغرس لتقديرات الباحثين الإسرائيليين بشأن مستقبل البرنامج النووي الإيراني وتداعيات التحولات في العالم العربي. انظر: رون تيرا، هتعروروت هتتسريف هإستراتيجي شل يسرائيل (**اهتزاز الفضاء الاستراتيجي لإسرائيل**)، مجلة "عدكون استراتيجي"، أبحاث الأمن القومي، مجلد ١٤، عدد ٣، أكتوبر ٢٠١١، ص ٣٤

إصدارات بحثية

يحتكر «مركز أبحاث الأمن القومي» إصدار معظم المجلات والدوريات البحثية التي تعنى بالقضايا الإستراتيجية، وتحظى بالاهتمام الأكاديمي والسياسي والإعلامي، حيث أن بعض مراكز الأبحاث الأخرى يصدر كل منها دورية واحدة، في حين أن البعض الآخر يكتفي فقط بنشر الأبحاث والكتب وعقد الندوات والمؤتمرات لمناقشة قضايا في مجالات تخصصها.

جدول (٢) يتناول يعرض لأهم الإصدارات البحثية لمركز أبحاث الأمن القومي

الإصدار	الطابع
مباط عال «نظرة عليا »	دورية شهرية، مقالات بحثية قصيرة، تتناول مختلف القضايا ذات الطابع الإستراتيجي
عدكون إستراتيجي« إيجاز إستراتيجي»	تصدر كل شهرين، وتتضمن أوراق بحثية طويلة نسبياً، تغطي مختلف القضايا الإستراتيجية
تسفاه فإستراتيجيا « الجيش والإستراتيجيا»	فصلية، تتناول قضايا تتعلق بمتطلبات بناء القوة العسكرية، وتقديم مقترحات تتعلق بتنظيم مؤسسات الجيش؛ وفق تقديرها للأولويات التي يحددها معيار المخاطر والفرص
هعرخاه إستراتيجيت ليسرائيل « التقدير الإستراتيجي الإسرائيلي »	سنوي، ويتضمن أوراقاً تقيس مدى نجاح إسرائيل في مواجهة التحديات الإستراتيجية في العام المنصرم واستغلال الفرص فيه، وتعنى باستشراف المخاطر والفرص في العام الجديد ومتطلبات مواجهتها واستغلالها. يقدم هذا التقدير خلال المؤتمر السنوي للمركز الذي يعقد في يناير من كل عام
همأزان هإستراتيجي بمزراح هتيخون «التوازن الإستراتيجي في الشرق الأوسط»	سنوي، ويتضمن أوراق تقارن بين مركبات القوة العسكرية لكل من إسرائيل ودول المنطقة، وتعنى بطرح مقترحات لتعزيز التفوق الإستراتيجي
البيان *	تعنى ببحث العلاقة بين فلسطينيي ٤٨ والحكم في إسرائيل
هميديا هحدشاه بمزراح هتيخون «الإعلام الجديد في الشرق الأوسط»	جملة إصدارات غير دورية تعنى باتجاهات الجدل في مواقع التواصل الاجتماعي في العالم العربي ودلالاته.

* تصدر بالعبرية على الرغم من أنها تقابل الكلمة العربية

عسكرة مراكز الأبحاث المدنية

على الرغم من طابعها المدني، إلا أن الأغلبية الساحقة من الكفاءات البحثية في مراكز الأبحاث المستقلة الرائدة ذات خلفية عسكرية؛ حيث أن معظم هؤلاء خدموا كباحثين عسكريين أو شغلوا مواقع متقدمة في الاستخبارات ومؤسسات الجيش والاستخبارات المختلفة. وترجع هذه الظاهرة إلى حقيقة أن القضايا التي تبحثها هذه المراكز عالجها الباحثون العسكريون وكبار الضباط أثناء خدمتهم العسكرية، سيما في دوائر البحث وأقسام التخطيط الإستراتيجي(٥٧). ولا تعد الخلفية العسكرية بديلًا عن التأهيل الأكاديمي، حيث أنهم جميعاً حاصلين على الماجستير وبعضهم حاصل على درجة الدكتوراه.

وعلى الرغم من أنه من الصعوبة بمكان حصر عدد الجنرالات والضباط الكبار الذين تولوا مهام رئيسة في إدارة مراكز الأبحاث وتحديد أولوياتها؛ فإننا سنعرض للخلفيات العسكرية للباحثين الذين يعملون حاليا في «مركز أبحاث الأمن القومي»، الذي صنفه برنامج «مراكز التفكير والمجتمع المدني» العالمي **« TTCSP»** كمركز الأبحاث الأول في إسرائيل في كل ما يتعلق بمقاربة القضايا الإستراتيجية المتعلقة بإسرائيل والشرق الأوسط(٥٨).

---

(٥٧) ويأتي هذا أيضاً بسبب ظاهرة العسكرة التي تعد أهم سمات المجتمع الإسرائيلي، وهي الظاهرة التي تجذرت بفعل ظروف نشأة الكيان الصهيوني، الذي مثلت القوة العسكرية أهم مقوم لضمان بقائه، وهذا ما جعل مؤسسات الدولة ومرافق المجتمع تمنح أفضلية لاستقطاب العسكريين بعد تسرحهم في مؤسسات الدولة. أنظر: صالح النعامي، **إسرائيل دولة يملكها جيش**، الجزيرة نت:
http://www.aljazeera.net/knowledgegate/opinions/2004

(٥٨) انظر:
http://heb.inss.org.il/index.aspx?id=4516

جدول (٤) يظهر العلاقة بين الخلفية العسكرية للباحثين في «مركز أبحاث الأمن القومي الإسرائيلي»:

الباحث	الموقع في المركز	الخلفية العسكرية
عاموس يادلين	رئيس	جنرال متقاعد، الرئيس الأسبق لشعبة الاستخبارات العسكرية (أمان)
إفرايم كام	النائب السابق لرئيس المركز، ومسؤول دائرة إيران فيه حالياً	عقيد متعاقد، عمل كمساعد لقائد لواء الأبحاث في «أمان».
تسفي مغان	مدير ملف روسيا	عقيد متقاعد، خدم في لواء الأبحاث في «أمان» ، وسفير في روسيا وأوكرانيا
أودي ديكل	مدير التخطيط الإداري	جنرال، رئيس شعبة التخطيط في هيئة أركان الجيش، قائد استخبارات سلاح الجو
أساف أوريون	مدير ملف الصين	عميد متقاعد، قاد وحدة التخطيط الإستراتيجي في شعبة التخطيط في الجيش، وخدم في «وحدة ٨٢٠٠»، وحدة التجسس الإلكتروني
مئير ألان	مدير ملف الجبهة الداخلية	عميد متقاعد، قاد لواء الأبحاث في «أمان»
شلومو بروم	مدير ملف العلاقات الإسرائيلية الفلسطينية	عميد متقاعد، قاد وحدة التخطيط الإستراتيجي في شعبة التخطيط في الجيش
أفنير غولوف	مساعد الرئيس	رائد متقاعد، في استخبارات سلاح الجو
جابي سيبوني	مدير ملف أمن المعلومات والفضاء الإلكتروني	عقيد متقاعد، رأس دائرة البحث والتخطيط في شعبة القوى البشرية، وكان من قادة لواء الصفوة «جولاني»، من ألوية المشاة
أوريت برلوف	مديرة ملف الشبكات الاجتماعية	صابط متقاعد، خدمت في لواء الأبحاث في «أمان»
يورام شفايتسر	مدير ملف الإرهاب، ومنسق الأبحاث المتعلقة بـ «حركات الجهاد العالمي»	عقيد متقاعد، باحث بارز في لواء الأبحاث في «أمان».
جلعاد شير	مدير ملف المفاوضات	عقيد متقاعد، قاد لواء مدرعات
يائير ناڤيه	باحث كبير	جنرال متقاعد، نائب رئيس هيئة أركان الجيش

المصدر: صفحة الباحثين في النسخة العبرية للمركز: http://heb.inss.org.il/index.aspx?id=4250

وإلى جانب الاستعانة بالنخب العسكرية المتقاعدة، التي تضطلع بدور رئيس في العملية البحثية، فإن مراكز الأبحاث الرائدة تحرص على استيعاب وزراء سابقين وموظفين كبار في السلك الدبلوماسي والتراتبية البيروقراطية كباحثين متعاونين للمساعدة في معالجة قضايا ذات ارتباط بالمهام التي كانوا يضطلعون بها سابقاً. فقد حرص "مركز أبحاث الأمن القومي" على استيعاب وزير الداخلية السابق جدعون ساعر، كباحث متعاون، حيث أنه نظراً لأن ساعر كان عضواً في المجلس الوزاري المصغر لشؤون الأمن، الذي يعد أهم حلقة في دائرة صنع القرار السياسي في إسرائيل، فإن مشاركاته البحثية تكتسب أهمية خاصة، على الرغم من أن مؤهله الأكاديمي يتمثل في اللقب الأول في المحاماة(٥٩). وقد استعان المركز بعدد من كبار الدبلوماسيين السابقين، على رأسهم عوديد عيران، السفير الأسبق في الأردن والاتحاد الأوروبي. وقد استعان "مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات" بعوزي عراد، الذي شغل منصبي المستشار السياسي ومستشار الأمن القومي لرئيس الوزراء الحالي بنيامين نتنياهو، حيث أصبح فيما بعد مديراً للمركز(٦٠).

(٥٩) أعد ساعر عدداً من الأبحاث تتعلق بالحل الأمثل الذي يخدم المصالح الإستراتيجية في سوريا، حيث نظر لفكرة التقسيم. انظر: جدعون ساعر، بريدا مي سيريا، بريدا مي سايكس بيكو(**وداعاً لسوريا وداعاً لسايكس بيكو**)، مباط عال، عدد ٧٥٤، ١١-١٠-٢٠١٥.

(٦٠) قبل انضمامه للحكومة عمل عراد في جهاز الموساد، حيث تسرح عندما كان يقود قسم الأبحاث في الجهاز.

مراكز أبحاث ذات توجه أيديولوجي

تعبر بعض مراكز الأبحاث المستقلة والأكاديمية في إسرائيل عن توجهات أيديولوجية، على الرغم من أنها تدعي عدم الارتباط بأحزاب أو قوى سياسية. وتخدم هذه المراكز بشكل خاص اليمين الصهيوني، وتعد جزءًا من ترسانته الفكرية والأيديولوجية، في حين لا يوجد في المقابل مراكز أبحاث تتبنى بشكل واضح أطروحات اليسار وتنظر لها. وتعمل هذه المراكز على توظيف المناشط البحثية في التدليل على صدقية المواقف السياسية والأيديولوجية للجهات التي تقف وراءها(٦١).

ويعد ''مركز يروشليم لدراسة الجمهور والدولة'' أهم المراكز البحثية ذات التوجه اليميني الصارخ، وهو المركز الذي أسسه ورأس مجلس إدارته دوري غولد، وكيل وزارة الخارجية الإسرائيلي الحالي(٦٢). وتدل إصدارات المركز، الذي يعد رجل الأعمال اليهودي الأمريكي شيلدون أدلسون أبرز مموليه، على توجهاته اليمينية؛ حيث أنه نشر كتباً ومقالات كثيرة تركز على التحريض على الحركة الإسلامية في الداخل الفلسطيني بقيادة الشيخ رائد صلاح، علاوة على أن سعي المركز لـ «نسف» دعاوى النخب اليسارية التي تحذر من تبعات استمرار الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية(٦٣). وقد استعان المركز بعدد من الدبلوماسيين السابقين من ذوي التوجهات المتطرفة، وعلى رأسهم تسفي مزال، السفير الأسبق في القاهرة.

(٦١) يمثل تدشين مراكز الأبحاث ذات التوجه اليميني مرحلة متقدمة من مخطط شامل عكفت عليه حكومات اليمين المتعاقبة والمرجعيات الدينية، يقوم على أساس إعادة صياغة النخبة الإسرائيلية بشكل يحسن مكانة اليمين بشقيه الديني والعلماني في هذه النخبة. أنظر: صالح، النعامي، **تعاظم التيار الديني الصهيوني في إسرائيل وآثاره الداخلية والإقليمية**، الرياض، مركز البحوث والدراسات '' البيان ''، ٢٠١٣، ص ص ٢٧٥-٢٨٧

(٦٢) كان غولد المحرر الرئيس لصحيفة ''جيروسلم بوست'' اليمينية، وعمل مستشاراً سياسياً لرئيس لوزراء الحالي نتنياهو ومندوبًا لإسرائيل في الأمم المتحدة.

(٦٣) نشر المركز أبحاثًا للتدليل على أنه ليس بوسع إسرائيل ضمان بقائها بدون السيطرة الكاملة على كل الضفة الغربية والتوسع في الحديث عن مخاطر الدولة الفلسطينية، إلى جنب عرض معطيات انتقائية للتدليل على أن إسرائيل لا تواجه عزلة بسبب استمرار الاحتلال. أنظر موقع المركز: http://jcpa.org.il

ولا تخفى التوجهات الأيديولوجية اليمينية لمركز "بيغن السادات للدراسات الإستراتيجية" ، التابع لجامعة (بار إيلان)، حيث أن الجامعة هي معقل التيار الديني الصهيوني. ويكفي رصد عناوين الأوراق البحثية والكتب التي يصدرها المركز وتنشر على موقعه؛ لكي تتضح التوجهات اليمينية للمركز(٦٤). ويعد «مركز أرئيل لدراسة السياسات»، التابع لجامعة «أرئيل»، المقامة في مستوطنة «أرئيل»، من المراكز البحثية التي تنظر لتوجهات اليمين الصهيوني الديني. فهذه الجامعة تم تدشينها في مستوطنة « أرئيل»، التي يقطنها غلاة اليمين الديني الصهيوني. ويعنى المركز بإصدار دراسات استشراقية تهدف إلى تشويه الإسلام عبر ربط هذا الدين بالإرهاب(٦٥).

لا تخفى التوجهات الأيدلوجية اليمينية لمركز "بيغن"، التابع لجامعة "بار إيلان"، حيث أن الجامعة هي معقل التيار الديني الصهيوني.

وتتسم الطروحات الاستشراقية لبعض الباحثين فيه بالتسطيح والضحالة والتضليل. فقد حث البرفسور المستشرق "نسيم دينا" على دفن المقاومين الفلسطينيين الذين يقتلون في عمليات للمقاومة وبجوارهم لحم خنزير، بسبب الموقف السلبي للإسلام من هذا الحيوان، على اعتبار أن مثل هذه الخطوة ستشكل ردعاً للفلسطينيين عن الانخراط في عمليات المقاومة(٦٦).

---

(٦٤) انظر موقع المركز: http://besacenter.org/hebrew

(٦٥) انظر: موقع المركز: http://www.acpr.org.il/new.htm

(٦٦) موقع عروتش شيفع، 12-7-2015، http://www.inn.co.il/News/Flash.aspx/492978

مراكز الأبحاث الإسرائيلية والعالم العربي

تولي مراكز الأبحاث الإسرائيلية اهتماماً كبيراً بدراسة العالم العربي، وقضاياه، حيث أن نظرية الأمن الإسرائيلي تفترض أن المحيط العربي يضم أخطر مصادر التهديد الإستراتيجي والوجودي على الكيان الصهيوني(٦٧). وتولي مراكز البحث اهتماماً أكبر بالعالم العربي، وتحديداً بالدول العربية التي تمثل جزءاً مهماً من بيئة إسرائيل الإقليمية، أو أنها تمثل بشكل مباشر أو غير مباشر مصدر تهديد عليها. وتعنى معظم مراكز الأبحاث المستقلة والأكاديمية بدراسة الشأن العربي، سيما «مركز أبحاث الأمن القومي» و«مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات». وقد حرصت معظم المؤسسات الأكاديمية على تدشين «مراكز أبحاث» متخصصة بدراسة العالم العربي والإسلام؛ تقدم رؤى ومقاربات أكثر تخصصاً وشمولية عن العالم العربي، أوضاعه السياسية، الاجتماعية، الثقافية، الفنية، مشاكله، وأسبابها وغيرها.

نظرية الأمن الإسرائيلي تفترض أن المحيط العربي يضم أخطر مصادر التهديد الإستراتيجي والوجودي على الكيان الصهيوني

جدول (٥) يضم أهم مراكز الأبحاث ووحدات البحث الأكاديمية التي تعنى بدراسة العالم العربي

المركز	المؤسسة
مركز موشيه ديان لدراسات الشرق الأوسط وأفريقيا	جامعة تل أبيب
دراسات الإسلام والشرق الأوسط	الجامعة العبرية
مركز حاييم هيرتزوغ لدراسة الشرق الأوسط	جامعة بن غوريون
وحدة دراسات الإسلام	مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات
وحدة دراسات الشرق الأوسط	جامعة بارايلان

➤ ويحظى الباحثون المتخصصون في الشأنين العربي والإسلامي بحضور قوي في المؤسسات البحثية. وقد برز بعض هؤلاء في مجالات بحثية محددة، حيث يكتسبون مصداقية خاصة جعلت منهم مرجعيات عند تناول شأن إسلامي أو عربي محدد.

(٦٧) رؤفين بيدهتسور، مرجع سابق

الجدول (٦) يعرض لأهم الباحثين الإسرائيليين، الذين يعدون مرجعيات في شؤون عربية وإسلامية محددة

الباحث	التخصص	مركز الأبحاث أو المؤسسة الأكاديمية
موشيه ماعوز	الإسلام والحضارة الإسلامية	مركز ترومان
إيال زيسر	سوريا	جامعة تل أبيب
يوئيل جوزيسنكي	الخليج	مركز أبحاث الأمن القومي
أساف رفيد	الأردن	مركز ترومان
شاؤول مشعال	فلسطين	«مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات»
إلي فودا	مصر	الجامعة العبرية
إيران ليمان	ليبيا	مركز بيغن السادات للدراسات الإستراتيجية
إفرايم كام	إيران	مركز أبحاث الأمن القومي
جاليا ليندا شتراوس	تركيا	مركز أبحاث الأمن القومي
يورام شفايتسر	لتنظيمات الجهادية	مركز أبحاث الأمن القومي

مراكز الأبحاث والتحولات في العالم العربي

شكلت التحولات المتلاحقة التي شهدها العالم العربي منذ أواخر العام ٢٠١٠ وحتى الآن؛ مادة خصبة لاهتمام مراكز الأبحاث الإسرائيلية، حيث أن دراسة هذه التحولات حاز ويحوز على جل اهتمام هذه المراكز. ويمكن القول إن مجال اهتمام مراكز الأبحاث الإسرائيلية شمل كلاً من الموجة الأولى من التحولات والتي أطلق عليها "ثورات الربيع العربي"، والتي أفضت إلى إسقاط بعض أنظمة الحكم، والموجة الثانية والتي أفضت إلى تمكن نخب كانت تمثل أنظمة الحكم القديمة أو قريبة منها من استعادة الحكم في بعض الدول العربية، وهو ما يطلق عليه البعض في العالم العربي "الثورات المضادة".

مراكز الأبحاث والموجة الأولى من التحولات في العالم العربي

لم يحدث أن عنت مراكز البحث الإسرائيلية بدراسة قضية ما، قدر اهتمامها بدراسة الثورات العربية، فحللت بواعثها، ورصدت تداعياتها المحتملة، واستشرفت انعكاساتها على إسرائيل وأمنها "القومي"، وتأثيراتها المختلفة على البيئة الاستراتيجية للصراع مع العرب، إلى جانب توسع هذه المراكز في صياغة التوصيات لدوائر صنع القرار الإسرائيلي بشأن الاستراتيجيات، التي يتوجب تبنيها وآليات العمل، التي يحبذ اعتمادها، لتقليص التداعيات السلبية للربيع العربي على إسرائيل.

لم يحدث أن عنت مراكز البحث الإسرائيلية بدراسة قضية ما، قدر اهتمامها بدراسة الثورات العربية

وقد أجمعت مراكز الأبحاث الإسرائيلية، على جملة من الاستنتاجات من الثورات العربية، التي تطابقت مع تصور دوائر صنع القرار في تل أبيب لتداعيات هذه الثورات.

ويمكن حصر أهم استنتاجات مراكز الأبحاث في التالي:

➤ **أولاً:** مثلت الثورات العربية تهديداً إستراتيجياً لإسرائيل؛ لأنها تحمل في طياتها طاقة كامنة يمكن أن تفضي إلى تغيير البيئة الإقليمية للكيان الصهيوني بشكل جذري، بحيث تفقد إسرائيل شراكاتها الاستراتيجية، مع كل من مصر والأردن(٦٨).

➤ **ثانياً:** عززت الثورات من مكانة الرأي العام العربي بشكل غير مسبوق، بحيث يمكن أن يفرض ذاته على السياسات العامة لنخب الحكم في العالم العربي، وهذا يتناقض مع مصالح إسرائيل، على اعتبار أن الرأي العام العربي دائماً يتبنى مواقف أكثر سلبية تجاه إسرائيل(٦٩).

➤ **ثالثاً:** حسنت الثورات العربية مكانة المقاومة الفلسطينية في مواجهة إسرائيل وتقلص من قدرة تل أبيب على استخدام القوة في مواجهة الفلسطينيين. وقد أوصت بعض مراكز الأبحاث باستخدام أقل قدر من القوة العسكرية في مواجهة هذه المقاومة؛ وذلك من أجل عدم استفزاز الرأي العام العربي، بحيث يمارس ضغوطاً على دوائر صنع القرار لاتخاذ إجراءات ضد إسرائيل(٧٠).

➤ **رابعاً:** الدعوة للاستعداد للحرب مع مصر، على اعتبار أن هذه نتيجة حتمية لتعبير نخب الحكم الجديدة عن توجهات الشارع المصري(٧١).

---

(٦٨) لا تكاد دراسة أو جهد بحثي قام به أي مركز أبحاث إسرائيلي بشأن الثورات العربية يخلو من هذا الاستنتاج، انظر مثلًا: داني روتشيلد، تومي شتاينر، تقدير هرتسليا ٢٠١٢: هعرخت هرتسليا ٢٠١٢: يسرائيل بعين سعروت (**إسرائيل في عين العاصفة**)، يناير ٢٠١٢، مؤتمر هرتسليا الثاني عشر، ميزان الحصانة والأمن القومي، مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات. وانظر: رون تيرا، هتعروروت هتتسريف هإستراتيجي شل يسرائيل (**اهتزاز الفضاء الاستراتيجي لإسرائيل**)، مجلة عدكون استراتيجي، مجلد ١٤، عدد ٣، مركز أبحاث الأمن القومي ، أكتوبر ٢٠١١، ص ص ١٣-٢٩.

(٦٩) انظر: يوئيل جوزنسكي، مارك هيلير، شنا لأبيب هعرفي: هشلخوت أزوريوت فبنلئوميوت (**عام على الربيع العربي: تداعيات إقليمية ودولية**)، مذكرة ١١٤، مركز دراسات الأمن القومي ، مارس ٢٠١٢.

(٧٠) عنات كورش، هأفيف هعرفي فهزيرا هيسرئيليت هفلسطينيت (**الربيع العربي والحلبة الإسرائيلية الفلسطينية**) في: يوئيل جوزنسكي، مارك هيلير (محرران)، "شنا لأفيب هعرفي: هشلخوت أزوريوت فبنلئوميوت" (**عام على الربيع العربي: تداعيات إقليمية ودولية**)، مذكرة ١١٤، مارس ٢٠١٢، مركز دراسات الأمن القومي، جامعة تل أبيب، ص ٦٧-٧١.

(٧١) يهودا دحوح هليفي، سيمانيم مدئغيم كلبي يسرائيل بهبرلمنت هممتسري لكرات هبحيروت لنسيئوت متسرايم **علامات مقلقة بشأن إسرائيل في البرلمان المصري عشية الانتخابات الرئاسية**، مركز القدس القدس لشؤون الجمهور والمجتمع، 2012-3-14، http://www.jcpa.org.il/Templates/showpage.asp?FID=839&DBID=1&LN GID=2&TMID=99&IID=26556

وقد تبنت الحكومة الإسرائيلية هذا التوجه من خلال قرارها إعادة الاعتبار لقيادة المنطقة الجنوبية في الجيش، التي كانت الأكثر إهمالاً، وذلك في أعقاب إجراء أول انتخابات رئاسية مصرية تجرى بعد ثورة ٢٥ يناير(٧٢).

➤ **خامساً:** افترضت مراكز الأبحاث أن يشكل اندلا ع الثورات العربية نقطة تحول فارقة تؤسس لوصول الحركات الإسلامية للحكم في مزيد من الدول العربية، بما يفضي إلى مزيد من التدهور في بيئة إسرائيل الإقليمية بسبب موقف الإسلاميين السلبي من إسرائيل(٧٣).

➤ **سادساً:** توصية صناع القرار بالاستثمار في بناء القوة العسكرية وإعادة ترتيب أولويات الجيش لمواجهة كثافة التحديات(٧٤).

➤ **سابعاً:** الدعوة لاتباع سياسة تقشفية على الصعيد الاقتصادي؛ لتمكين الدولة من تخصيص مزيد من الموارد لبناء القوة العسكرية، والتوصية بتقليص مستوى الخدمات التي تقدمها مؤسسات الكيان الصهيوني للجمهور الإسرائيلي(٧٥).

➤ **ثامناً:** دعوة الحكومة الإسرائيلية إلى لعب دور رئيس في إحباط التحول الديموقراطي في العالم العربي، من خلال توظيف علاقاتها الدولية، سيما مع الولايات المتحدة وعبر الاستعانة بالولايات المتحدة، وشن حملة لشيطنة الربيع العربي من خلال وصفه بـ "شتاء إسلامي"(٧٦).

---

(٧٢) انظر: صالح النعامي، تطويق مرسي: **استراتيجية تقليل الأضرار الإسرائيلية**، مركز الجزيرة للدراسات، ١١-٧-٢٠١٢،
http://studies.aljazeera.net/reports/2012/20127111413147835 7/07/htm

(٧٣) للإحاطة أكثر بطابع المخاوف التي رصدتها مراكز الأبحاث الإسرائيلية بشأن تداعيات صعود الإسلاميين للحكم. انظر: صالح النعامي، **إسرائيل وفزاعة الإسلاميين في أعقاب الثورات العربية**، الدوحة، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، سلسلة (دراسات وأوراق بحثية)، أكتوبر، ٢٠١١.

(٧٤) انظر مثلًا: جابي سيبوني، "هتلتلا بعولام هعرفي: مشمعيوت لتساهل" (**الهزة في العالم العربي ومغزاها للجيش الإسرائيلي**) في: يوئيل جوزنسكي، مارك هيلير ، مرجع سابق، ص ٧١-٧٥.

(٧٥) وردت هذه الدعوة في كثير من الأوراق، انظر:
,Efraim Inbar, The 2011 Arab Uprisings and Israel's National Security
Mideast Security and Policy Studies No. 95, THE BEGIN-SADAT CENTER FOR STRATEGIC STUDIES

(٧٦) انظر مثلًا:
What Arab spring?, BESA Bulletin,No.28, April 2012, The Begin-Sadat Center For Strategic Studies, Bar Illan University. http://www.biu.ac.il/Besa/bulletin.htm

➢ **تاسعاً:** الحث على استغلال المصالح المشتركة مع الأنظمة العربية التي ترى في ثورات الربيع العربي تهديداً لبقائها، وتوظيف ذلك في تحقيق المصالح الإسرائيلية(٧٧).

➢ **عاشراً:** على الرغم من إجماع مراكز الأبحاث في إسرائيل على أن الثورات أضعفت مكانة الولايات المتحدة في المنطقة، إلا أنها أوصت بتعزيز أواصر التحالف معها، على اعتبار أن الحاجة للدعم الأمريكي ستتعاظم في ظل التحولات التي يشهدها العالم العربي(٧٨).

➢ **الحادي عشر:** الدعوة إلى ضرورة بناء شراكة مع الاتحاد الروسي؛ للتغطية على ما يمكن أن تفقده إسرئيل من تراجع مكانة الولايات المتحدة ولتعزيز مكانتها الإقليمية والدولية، حيث اقترح أن تقوم هذه الشراكة على أساس محاربة الحركات الإسلامية والتعاون في تسويق الغاز، سيما وأن الثورات العربية قد تفجرت بعد عامين على إعلان إسرائيل عن اكتشاف حقول غاز تحتوي على احتياطات ضخمة في عمق البحر الأبيض المتوسط(٧٩).

➢ **الثاني عشر:** توقعت بعض مراكز الأبحاث أن تفضي الثورات العربية إلى تعزيز مكانة تركيا لدى الغرب، وفي الوقت ذاته اندفاع القيادة التركية نحو مزيد من العداء تجاه إسرائيل؛ مما يستدعي المبادرة لتوجيه ضربات دبلوماسية لها عبر الإعلان عن دعم فكرة قيام الدولة الكردية، ومد حزب العمال الكردي بالسلاح والعتاد(٨٠).

---

(٧٧) انظر: –عاموس يادلين، مرجع سابق

(٧٨) انظر: داني روتشيلد، مرجع سابق

(٧٩) انظر: تسفي مغين ، ”روسيا نوحخ هأفيف هعرفي“ (**روسيا بعد الربيع العربي**)، في: يوئيل جوزنسكي، مارك هيلير، مرجع سابق،ص ٣٠

(٨٠) هذه إحدى الاستنتاجات التي ولج إليها عدد من الباحثين، وعلى رأسهم وكيل الخارجية الأسبق البرفسور ألون ليفين في بحث تناول سبل التعاطي مع تركيا بعد الربيع العربي. انظر: ألون ليفين، ”كيتساد عل يسرائيل لتنهيل مول هسعرون بمزراح هتيخون“ (**كيف يتوجب على إسرائيل أن تتصرف إزاء العواصف في الشرق الأوسط**)، مجلة ” سيكور مموكاد “، سبتمبر ٢٠١١:
http://www.sikurmemukad.com/magazine/092011/strategy092011.html

مراكز الأبحاث الإسرائيلية والموجة الثانية من التحولات في العالم العربي

مثلت الموجة الثانية من التحولات في العالم العربي، والتي بلغت ذروتها في عزل الرئيس المصري محمد مرسي وتولي وزير الدفاع عبد الفتاح السيسي مقاليد الأمر؛ مناسبة لاستنفار مراكز الأبحاث الإسرائيلية، التي عنت بشكل خاص بتقديم التوصيات لدوائر صنع القرار في تل أبيب لاستغلال هذه التحولات وتوظيفها في تلافي مخاطر الثورات الربيع العربي على الأمن القومي الإسرائيلي. وقد دعت مراكز الأبحاث إلى مساعدة النظام الجديد في القاهرة، وتثبيت أركانه وضمان شرعية دولية له، على اعتبار أن نجاحه يضمن تقليص فرص تحقق السيناريوهات التي سبق أن حذرت منها عندما تفجرت ثورات الربيع العربي. وقد ترافق هذ الاستنفار مع احتفاء كل من النخب والرأي العام الإسرائيلي بصعود السيسي بشكل جلي(٨١).

مثلت موجة التحولات في العالم العربي، والتي بلغت ذروتها في عزل مرسي وتولي السيسي؛ مناسبة لاستنفار مراكز الأبحاث الإسرائيلية

ويمكن حصر أهم الاستنتاجات التي ولجت إليها مراكز الأبحاث والتوصيات التي قدمتها مراكز الأبحاث الإسرائيلية بشأن التعامل مع الموجة الثانية من التحولات في العالم العربي، سيما عزل مرسي وصعود السيسي، على النحو التالي:

(٨١) لقد لفت المفكر الإسرائيلي آرييه شافيت الأنظار إلى مظاهر الاحتفاء بصعود السيسي، حيث كتب: "إن الجنرال عبد الفتاح السيسي هو بطل إسرائيل، فلا يحتاج المرء أن يكون لديه عين ثاقبة بشكل خاص حتى يكتشف حجم التشجيع العميق والإعجاب الخفي الذي تكنه النخبة الإسرائيلية تجاه قائد قوات الجارة الكبرى من الجنوب، الذي قام للتو بسجن الرئيس المنتخب الذي قام بتعيينه في منصبه.". انظر: آرييه شافيت، هكيميا هيسرائيليت لإل سيسي (**الكيماء الإسرائيلية تجاه السيسي**)، هارتس، 2013-7-11، http://www.haaretz.co.il/opinions/.premium-1.2068559

➢ **أولاً:** سمح صعود السيسي للحكم بتقليص مستوى المخاطر على إسرائيل التي تعاظمت مع اندلاع الثورات العربية، ويسمح ليس فقط باستعادة الشراكة الإستراتيجية بين تل أبيب والقاهرة التي كانت قائمة في عهد الرئيس مبارك، بل هناك احتمال أن تستحيل الشراكة إلى تحالف بين الجانبين ذي فاعلة كبيرة في مواجهة "الجهات المتطرفة"(٨٢).

➢ **ثانياً:** يعد كبح جماح الإسلاميين هو أهم العوائد الإيجابية التي ستستفيد منها إسرائيل بعد وصول العسكر للحكم في القاهرة(٨٣).

➢ **ثالثاً:** أهم مظاهر استئناف الشراكة الإستراتيجية مع مصر في العهد الجديد يتمثل في تعزيز التعاون مع الجيش المصري في مواجهة البؤر الجهادية في سيناء والتصدي لعمليات تهريب السلاح عبر سيناء إلى قطاع غزة، ومحاصرة حركة حماس في القطاع، وصد التهديد الإيراني، وتوفير ظروف أفضل لمواجهة البرنامج النووي لطهران(٨٤).

➢ **رابعاً:** دور مركزي للحكم الجديد في القاهرة في تشجيع الأنظمة العربية الأخرى على شن حرب لا هوادة فيها ضد الإسلام السياسي، وضمن ذلك تحفيز النظام الأردني للعمل ضد جماعة الإخوان المسلمين، إلى جانب تشجيع الاحتجاجات ضد الحكومات التي شكلها أو يشارك فيها الإسلاميون، سيما التحالف الحاكم في تونس، والذي يشكل فيه الإخوان المسلمون حجر الزاوية(٨٥).

---

(٨٢) انظر: تسفي مزال، متسرايم مول إيتموت همعراف (**مصر في مواجهة اللامبالاة الغربية**)، مركز يروشليم لدراسة الجمهور والدولة : 2013-8-6، http://jcpa.org.il/2013

(٨٣) هذا ما عبر عنه إفرايم كام، كبير باحثي "مركز أبحاث الأمن القومي" الإسرائيلي، أنظر: إفرايم كام، يسرائيل فمتسرايم: هسيكون فهسيكوي (**إسرائيل ومصر: الخطر والفرصة**)، إسرائيل اليوم: http://www.israelhayom.co.il/opinion/103013

(٨٤) تسفي مزال، هئم معريخت هأزونيم بمزراح هتيخون تحزور لكدومتا (**هل منظومة التوازنات في الشرق الأوسط تعود إلى سابق عهدها**، مركز يروشليم لدرسات الجمهور والدولة.
http://www.jcpa.org.il/Templates/showpage.asp?FID=925&DBID=1&LNGID=2&TMID=99&IID=27867

(٨٥) هذا ما حث عليه البرفسور يرون فريدمان، رئيس قسم الدراسات الشرقية في جامعة تل أبيب، أنظر: يرون فريدمان، هافيخا فآز مدينات تسفا...السيسي بلبوش مبارك (**انقلاب وبعده دولة عسكرية...السيسي بلباس مبارك**)، واي نت،
http://www.ynet.co.il/articles/0,7340,L-4412018,00.html

➤ **خامساً:** صعود السيسي؛ سيسهم في تحقيق هدف إسرائيلي إستراتيجي، يتمثل في إطالة أمد المواجهة المسلحة بين النظام ومعارضيه في سوريا؛ على اعتبار إن النظام الجديد في القاهرة يتبنى بالفعل مواقف معادية من الثورة السورية، وهو ما جعله يوقف جملة من الإجراءات التي اتخذها الرئيس المعزول مرسي لصالح الثوار، والتي وصلت ذروتها في مشاركة مرسي شخصياً في مؤتمر جماهيري حاشد نظمته الجماعات السلفية في القاهرة لنصرة الثورة السورية(٨٦).

➤ **سادساً:** وسع صعود السيسي من بؤر الشرخ ودوائر الاستقطاب في العالم العربي؛ سيما الشرخ المذهبي الذي وصل إلى مستويات غير مسبوقة بين السنة والشيعة، إلى جانب أن عزل مرسي قد أعاد إلى السطح الاستقطاب بين المتدينين والعلمانيين في العالم العربي، حيث أنه كلما تعددت بؤر الشرخ ودوائر الاستقطاب في العالم العربي، فإن التركيز على الصراع العربي الإسرائيلي يتراجع، وهذا يمثل مصلحة إسرائيلية من الطراز الأول(٨٧).

➤ **سابعاً:** من الأهمية بمكان؛ الوقوف عند جملة التوصيات التي قدمها "مركز أبحاث الأمن القومي" لصناع القرار في تل أبيب حول سبل دعم نظام السيسي وتكريس شرعيته:(٨٨)

---

(٨٦) ألون ليفين، يوفال بوستون، حلوم هديموكراتيا هستييم (**انتهاء حلم الديمقراطية** "، مجلة " سيكور موكاد " البحثية، يونيو ٢٠١٣، http://www.sikurmemukad.com/magazine/062013/egypt062013.html

(٨٧) ألون ليفين، يوفال بوستون، همزراح هتيوخون بأربع حلكيم، (**الشرق الأوسط ينشطر لأربعة أقسام**) مجلة سيكور موكاد البحثية، يونيو: ٢٠١٣ : http://www.sikurmemukad.com/magazine/0620134/groups.html

(٨٨) توصيات طاقم باحثي " مركز أبحاث الأمن القومي ، انظر: هأبخا همتسريت: هملتسوت ليسرائيل (**الثورة في مصر: توصيات لإسرائيل**)، ١١ يوليو ٢٠١٣، موقع المركز http://www.inss.org.il/heb/research.php?cat=94&incat=&read=11728

١. ضرورة القيام بتحرك عاجل وفاعل لتشجيع المستثمرين الأجانب على تدشين مشاريع البنى التحتية في مصر؛ من أجل توفير فرص العمل وتقليص مستويات البطالة، على اعتبار إن استمرار تدهور الاوضاع لاقتصادية في مصر سيهدد حكم العسكر.

٢. يتوجب على إسرائيل الطلب من الولايات المتحدة تشجيع الأنظمة العربية التي ناصبت حكم الإخوان المسلمين العداء، سيما السعودية وبعض دول الخليج على مواصلة تقديم المساعدات لحكم العسكر من أجل ضمان نجاح حكمهم، مع التأكيد على إن هذه الأنظمة كانت معنية بإفشال حكم الإخوان؛ لأنها كانت ترى أن نجاح حكمهم قد يولد قوة دفع تؤثر سلباً على فرص بقائها.

٣. السعي لإيجاد قنوات اتصال مع الحركات الشبابية ذات التوجه العلماني الليبرالي في مصر، والتي شاركت في تفجير الثورة المصرية، عبر توظيف القوة الإسرائيلية الناعمة من خلال طرح فكرة التعاون في مجال حل المشاكل الاقتصادية والاطلاع على تجربة إسرائيل في إدارة الحكم.

➢ وهناك من دعا إلى تحديد مكامن الخطر الاقتصادي التي تهدد الحكم الجديد في القاهرة والمسارعة بتقديم المساعدة في حلها، سيما مشكلتي المياه والزراعة، مع تقديم اقتراح بعرض إمكانية استفادة مصر من القدرات التقنية والعلمية لإسرائيل لتقليص مظاهر تأثير هاتين المشكلتين(٨٩).

➢ وتدلل أنماط سلوك الحكومة الإسرائيلية على أنها تبنت هذا التوصيات. فقد توجهت الحكومة الاسرائيلية للإدارة الأمريكية مطالبة بعدم المس بالمعونات الأمريكية المقدمة للجيش المصري، والتي تقدر ب ١,٣ مليار دولار، في أعقاب الانقلاب، على اعتبار إن قطع المساعدات سينعكس سلباً على الأمن القومي لإسرائيل(٩٠).

➢ واستناداً إلى ما كشف عنه كبار المسؤولين الإسرائيليين ولم يتم نفيه من قبل الحكومة المصرية، فقد تحققت الرهانات الإسرائيلية على عزل مرسي وصعود السيسي بشكل فاق أكثر التوقعات الإسرائيلية تفاؤلاً. فقد عد الجنرال عاموس جلعاد، رئيس الدائرة السياسية والأمنية في وزارة الدفاع الإسرائيلية "أهم معجزة حدثت لإسرائيل بعد تأسيسها"(٩١).

---

(٨٩) ألون ليفين، يوفال بوستون همزراح هتيوخون بأربع حلكيم، مرجع سابق

(٩٠) براك رفيد، يسرائيل لأرتسوت بريت: لمشيخ لسييع لتسفا متسرايم (**إسرائيل للولايات المتحدة: واصلوا تقديم الدعم للجيش المصري**)، هارتس،٩-٧-٢٠١٣،
http://www.haaretz.co.il/news/politics/.premium-1.2066810

(٩١) موقع قناة التفلزة الإسرائيلية الثانية، ١٢-٣-٢٠١٤،
http://www.mako.co.il/news-military/security/Article-ea977434c65b441004.htm

تحولات العالم العربي في المؤتمرات السنوية لمراكز الأبحاث

نظراً لأن المؤتمرات البحثية السنوية يعقدها فقط كل من "مركز أبحاث الأمن القومي" و "مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات"، فإن من الأهمية بمكان التعرف على عناوين الأوراق التي تقدم في هذين المؤتمرين. وتعكس القضايا التي بحثها المؤتمر السنوي الذي نظمه "مركز أبحاث الأمن القومي" مطلع يناير ٢٠١٦، والمؤتمر السنوي الذي نظمه "مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات" يونيو ٢٠١٥ مدى اهتمام مراكز الأبحاث الإسرائيلية بما يحدث في العالم العربي، ويدلل على مدى استنفارها لمساعدة صناع القرار في مواجهة تبعات التحولات في العالم العربي.

جدول (٧) يعرض للأوراق التي قدمت في آخر مؤتمرين لمركز "مركز أبحاث الأمن القومي" و"مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات"

عنوان الأوراق في مؤتمر "مركز أبحاث الأمن القومي" يناير ٢٠١٦	عنوان الأوراق في مؤتمر "مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات" يونيو ٢٠١٥
هل يتوجب على إسرائيل وضع الجهادية السلفية على رأس التهديدات في ٢٠١٦	تحولات الشرق الأوسط وإسرائيل
التدخل الروسي في سوريا: فرص إسرائيل	سيناريوهات مستقبل تحولات الشرق الأوسط عام ٢٠١٦
التحولات الإقليمية في الشرق الأوسط	مقترح لتعديلات على النظرية الأمنية لمواجهة تحولات المنطقة
إسرائيل والشرق الأوسط: تحديات وفرص	الإسلام في أوروبا وحركة المقاطعة الدولية: تهديد إستراتيجي
إسرائيل وتعاظم تدخل القوى العظمى في سوريا	مستقبل مبادرة السلام العربية في ظل التحولات الإقليمية
هل يتشكل نظام إقليمي جديد في الشرق الأوسط	تحديات الأمن القومي
تأثير الاتفاق النووي على توجهات إيران لتحقيق هيمنة إقليمية	تمويل حركات الجهاد العالمي
هل موجة الإرهاب الفلسطيني الحالية تمثل نقطة تحول الصراع من وطني إلى ديني	هل تواجه إسرائيل عزلة دولية
انكسار حل الدولتين	الشرق الأوسط بعد الاتفاق النووي مع إيران
ظاهرة نزع الشرعية عن إسرائيل: اتجاهات ومقترحات للمواجهة	هل بالإمكان منع حرب لبنان الثالثة
هل إسرائيل مستعدة لمواجهة التهديدات الأمنية	تأثيرات تحولات العالم العربي على الصراع مع الفلسطينيين
الجبهة الداخلية والأمن القومي	هل تفتح تفتح صفحة جديدة في العلاقات بين إسرائيل والولايات المتحدة
البيئة الإستراتيجية لإسرائيل (٢٠١١-٢٠١٥): توصيات لسياسات (٢٠١٦-٢٠٢٠)	مستقبل علاقات إسرائيل بآسيا

المصدر: النسخة العبرية لموقع «مركز أبحاث الأمن القومي»:

http//:heb.inss.org.il/index.aspx?id&4354=articleid11267=

والنسخة العبرية لموقع "مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات":

http://www.herzliyaconference.org/?CategoryID=637

خاتمة:

يتضح مما سبق؛ أن مراكز الأبحاث تشكل مركباً أساسياً من مركبات البيئة التي تؤثر في عملية صنع القرار في إسرائيل، وتضطلع بدور كبير في مساعدة نخب الحكم على رصد التحديات الإستراتيجية التي يتوجب مواجهتها، وتحديد الفرص التي ينبغي استغلالها وفق منظور علمي وموضوعي.

وقد تبين أن كثيراً من مظاهر سلوك الحكومات الإسرائيلية تجاه العالم العربي يتأثر تحديداً وبشكل واضح بالاتجاهات التي يعبر عنها نتاج مراكز الأبحاث، سيما بعد اندلا ع ثورات الربيع العربي.

كثير من مظاهر سلوك الحكومات الإسرائيلية تجاه العالم العربي يتأثر تحديداً وبشكل واضح بالاتجاهات التي يعبر عنها نتاج مراكز الأبحاث

إن أحد أهم العوامل التي وفرت الظروف أمام مراكز الأبحاث في إسرائيل لتقوم بهذا الدور الريادي هو الطابع "الديموقراطي" لنظام الحكم، حيث أن نخب الحكم في تل أبيب تدرك أنها ستحاسب من قبل مؤسسات الدولة ومن قبل الجمهور في حال ترتب على قراراتها نتائج سلبية؛ مما دفعها لعدم التردد في الاستعانة بأجسام محددة، وضمنها مراكز الأبحاث، لمساعدتها في اتخاذ القرارات المناسبة. من هنا لم يكن من سبيل الصدفة أن توصي اللجنة التي حققت في أسباب الإخفاق الإسرائيلي في حرب العام ١٩٧٣ بتأسيس مراكز أبحاث لمساعدة صناع القرار على اتخاذ القرارات لتقليص فرص حدوث هذا الاخفاق مستقبلاً.

وإزاء ما تقدم؛ فإن الباحث يقدم التوصيات التالية:

- هناك حاجة ماسة لمواصلة تسليط الضوء على مراكز الأبحاث الإسرائيلية التي لم يتوسع هذا البحث في التركيز عليها، سيما مراكز الأبحاث التي تعنى بقضايا الحكم والعلاقة بين الدين والدولة، والقضايا الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

- يتوجب رصد وتفكيك ما تنتجه مراكز الأبحاث الإسرائيلية من أدبيات بشأن العالم العربي؛ حيث أن هذا الجهد سيوفر مزيداً من الأدوات للحكم على بعض الأحكام والمسلمات التي يتم قذفها في الفضاء العربي بشأن الموقف من التحولات التي شهدها العالم العربي منذ أواخر العام ٢٠١٠.

- يتوجب على دوائر صنع القرار في العالم العربي وحركات المقاومة الإفادة من الأوراق والجدل الذي يدور داخل مراكز الأبحاث الإسرائيلية بشأن قضايا العالم العربي، سيما أثناء انعقاد مؤتمراتها؛ من أجل بلورة الإستراتيجيات المضادة.

- يتوجب على العرب أن يستخلصوا العبر من الدور الذي تقوم به مراكز الأبحاث في إسرائيل ويتجهوا لتدشين مراكز أبحاث تسهم فعلاً في بلورة المشاريع الإستراتيجية وفق منهاج علمي ومعرفي رصين.

- يجب على مراكز الأبحاث والمؤسسات الأكاديمية في العالم العربي أن تولي الشؤون الإسرائيلية الاهتمام المناسب؛ نظراً لما يمثله الكيان الصهيوني من تحدي للأمة وشعوبها. فلا يعقل أن يكون هناك عدد كبير من مراكز الأبحاث الإسرائيلية المتخصصة في دراسة الشؤون العربية، في حين لا يوجد في العالم العربي مركز أبحاث جدي واحد متخصص في دراسة الشأن الإسرائيلي، على الرغم من التفوق الديموغرافي والجغرافي والمادي للعالم العربي على إسرائيل.

- من الواضح أن أهم متطلب لتمكين العرب من توظيف مراكز الأبحاث في القيام بدور حقيقي في عملية صنع القرار؛ يتمثل في انجاز التحول الديموقراطي، على اعتبار أن نخب الحكم التي تدرك أن بقاءها في سدة الحكم يتوقف على قرار جمهور المواطنين؛ فإنها ستعمل على تحسين قدرتها على اتخاذ القرار عبر الإفادة من مراكز الأبحاث.

ملحق (ا) أهم مراكز الأبحاث في إسرائيل:

1. معهد أبحاث الأمن القومي: www.inss.co.il
2. مركز هرتسليا متعدد الاتجاهات www.herzliyaconference.org
3. مركز "إدفا" للدراسات الاجتماعية: www.adva.org
4. مركز "بيغن- السادات" للدراسات الإستراتيجية: www.biu.ac.il
5. مركز "بار إيلان" للعلوم الاجتماعية: www.biu.ac.il
6. مركز "هارتسوغ" للدراسات الشرق أوسطية والدبلوماسية: humweb3.bgu.ac.il
7. مركز "حاييم هارتسوغ" للإعلام والسياسة: www.tau.ac.il
8. الجمعية الإسرائيلية لدراسات الشرق الأوسط والإسلام: www.meisai.org.il
9. المعهد الإسرائيلي للأبحاث الاقتصادية: www.falk.huji.ac.il
10. مركز "فلورسهايمر" للأبحاث الإسرائيلية: www.fips.org.il
11. معهد "هرتسيل" لأبحاث الصهيونية: www.herzl.haifa.ac.il
12. معهد القدس لأبحاث إسرائيل: www.jiis.org.il
13. المركز الإسرائيلي لدراسات الإسلام والشرق الأوسط: www.hum.huji.ac.il
14. معهد الدراسات الآسيوية والأفريقية: www.asiafrica.huji.ac.il
15. معهد "نحميا لبتسيون" لأبحاث الإسلام: www.islam-center.huji.ac.il
16. المركز التاريخي للشرق الأوسط وأفريقيا: www.tau.ac.il/humanities
17. مركز "موشيه ديان" لدراسات الشرق الأوسط وأفريقيا: www.dayan.org
18. مركز الدراسات الإيرانية: www.historyschool.tau.ac.il
19. معهد أبحاث الأمن القومي: www.inss.co.il
20. دائرة الدراسات الشرق أوسطية: www.bgu.ac.il/mideast
21. المركز الإسرائيلي لدراسات الخليج العربي: www.gulfc.haifa.ac.il
22. المركز الإسرائيلي لمراقبة الإعلام العربي: www.memri.or

مقاربات

قراءة الغرب من منظور مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي
مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري نموذجا

الأستاذ الدكتور: عبد القادر بخوش
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة قطر

أولا: الغرب في الأدبيات العربية و الإسلامية المعاصرة

شهدت مسألةُ قراءة الغرب والاستفادة من تراثه اتجاهين في العالم الإسلامي، كلاهما بلغ من التطرف مبْلَغه. أحدهما: **الاتجاه الديني** أو **النهضوي** الذي اتسم في غالبه الأعم بالانغلاق ورفض الاقتباس عن الحضارة الغربية بذريعة الحفاظ على الهوية الإسلامية. والثاني: **التيار الحداثي** الذي انبهر رواده بالحضارة الغربية؛ ورأوا استنساخها بحُلْوِها ومُرِّها، بصحيحها وسقيمها، واتباع خُطى الغرب حَذو القُذَّةِ بالقُذَّة.

➢ **أما التيار الأول** فقد كان أنصارُه ضحية الجهل بمقاصد الشريعة، والجهل بمسائل الولاء والبراء، وطبيعة التعايش مع الآخر.

إن عدم الاعتراف بتقدم الغرب وتفوقه؛ قفزٌ على الحقائق الثابتة وتجنّ على الوقائع لا يخدم الفكر الإسلامي، وهذا عمرو بن العاص ﷺ، يصف الروم قائلا: «إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا؛ إِنَّهُمْ لَأَحْلَمُ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ، وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ، وَ أَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ، وَخَيْرُهُمْ لِمِسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ، وَخَامِسَةٌ حَسَنَةٌ جَمِيلَةٌ وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ»[1]، فلم يمنعْهُ التدافع الحضاري من الاعتراف بما لديهم من مواطن قوة وخصال محمودة.

(١) جاء في « **صحيح مسلم** » من حديث الليث بن سعد عن موسى بن عُلَيّ عن أبيه : أن المستورد القرشي – وكان عنده عمرو بن العاص ﷺ – ؛ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تقوم الساعة والروم أكثر الناس » . فقال عمرو بن العاص مقالته.

وقد لاحت بوادرُ هذا الاتجاه مع بداية القرن التاسع عشر، وهو عصر التقدم العلمي والتقني في الغرب، وعصر التخلف والانحطاط والفساد والاستعمار في الشرق. هذا الوضع المتأزم الذي طبع هذا الاتجاه في التعامل مع الغرب؛ انبثق عنه سؤال جوهري طرحه كاتب الشرق **شكيب أرسلان** وكرّس كل حياته للإجابة الدقيقة عنه، ولم يصل لنتيجة ترضيه، بل بقي مسكونا بهمّ البحث عن إجابة شافية ومنطقية له.

ما سر تقدم الغرب مع كفرهم، وبالمقابل تأخر العرب والمسلمين؟، وما الوسيلة المثلى والناجعة التي تمكن المسلمين من أن يصبحوا جزءًا من العالم المتحضر، مع الحفاظ على تراثهم العقدي والتاريخي؟.

انتهى رأي علماء هذا التيار إلى الاتفاق على أن تقهقر العرب والمسلمين وضعفهم يعود إلى أنهم هجروا تعاليم الإسلام الصحيحة وافتتنوا بالحضارة الغربية؛ فارتموا في أحضانها.

يمثل هذا الاتجاه معظم الأدبيات الإسلامية التي قدمها المفكرون المسلمون المعاصرون، والتي تتبنى قضية العودة إلى الذات وتجعلها محورا أساسيا لمشروع النهضة الحضارية، مع ما يصحبها من نظرة التوجس والريبة والحذر تجاه الآخر الغربي.

اتخذ هذا الاتجاه في عمومه منهجا متشددا في التعامل مع الآخر، خاصة في مواجهة الفكر الغربي ومناهجه، حيث اتسم بموقف التصدي للتحدي الحضاري الغربي، خلّف هذا التحدي نزوعا إلى الانتصار للهوية الإسلامية بالعودة إلى أسباب العزة الكامنة وبعثها من جديد.

إن هذا الاتجاه اضطلع بدور عظيم لا ينكر في زمن الانبهار بالغرب وحضارته، ومحاولة هذا الأخير القضاء على أصالة الشعوب وحضارتها والدعوة إلى الارتماء في أحضان الفكر الغربي باعتباره النموذج الوحيد والأمثل لأي نهضة وتقدم.

ولذلك أضحت غاية هذا الاتجاه؛ إبراز الحقائق الإسلامية وبعثها من جديد وإحياء النفوس بها، وتأكيد أن هذه الحقائق صالحة لكل زمان ومكان، وأنها الكفيلة بانتشال الأمة من حالة الانحطاط والتردي، وتدفع بها إلى النهوض والتقدم.

وهكذا أصبحت مشكلة العرب والمسلمين في القرن التاسع عشر، التي شكلت قضية التجديد الأساسية؛ هي رد الاعتبار للدين والتراث، حتى تعود للمسلمين حريتهم، ويسترجعوا مجدهم الضائع.

أصبحت مشكلة العرب والمسلمين في القرن التاسع عشر - التي شكلت قضية التجديد الأساسية - هي رد الاعتبار للدين والتراث

ومع أن أصحاب هذا الاتجاه اضطلعوا بأدوار في غاية الأهمية، تمثلت أساسا في نجاحهم في دعوة المسلمين إلى الاتحاد ضمن إطار الجامعة الإسلامية التي يمكن أن تضم المسلمين من كل القوميات، ونبذ التعصب الديني والمذهبي؛ مما خفف حدة التوتر بين المذاهب الإسلامية حول المسائل الفقهية والدينية. وإن لم ترق الدعوة للاتحاد إلى مستوى الممارسة التنظيمية الفعالة والطموحة؛ بسبب غياب مشروع استراتيجي يجسدها على أرض الواقع، فقد كان دورها فعالا في شحذ الهمم وجمع الطاقات للتصدي للاستعمار.

يرى الأستاذ **طارق البشري**، أن الدعوة الإسلامية ظهرت في أواخر العشرينيات دعوةً لاسترداد الأرض المفقودة أو الأرض المغزوة بالمعنى العقائدي الحضاري السياسي، ولذلك ظهرت دعوةً لمطلق الإسلام(٢)، لقد اتسم الفكرُ الإسلامي المعاصر، عموما، بسمة العداء الشديد للاستعمار والدعوة إلى محاربته بكل السبل المتاحة؛ فالخطاب السياسي المعادي للاستعمار له حضور بارز ضمن نسيج هذا الفكر.

ارتبط هذا الخطاب أصلا بواقع المسلمين الذين يعانون تخلفا وتشويها على المستوى الديني وتسلطا غربيا استعماريا على المستوى السياسي، فكان لهذا الخطاب مبرراته الزمانية والمكانية.

ولنا أن نتساءل: لماذا بقي هذا الخطاب وموقفه المتشدد من الغرب مهيمنا على الأطروحات الإسلامية؟، وهل الآخر كله استعمار؟، وهل بإمكان هذا أن يتجاوز أدبياته المتشددة حول الآخر، خاصة بعد خروج الاستعمار من البلاد الإسلامية؟.

إن الانتصار لهذا الخطاب واستحضاره في واقعنا الحالي لا يمكن أن يتعدى مستوى التقييم والاستفادة من الأخطاء، وللإنصاف، استنفد هذا الاتجاه جهوده؛ لأنه ارتبط بظروف زمانية خاصة، ولم يستطع أن يواكب التحديات المتراكمة والمتغيرات المتسارعة، وتحول في أغلبه إلى نزعة طوباوية جميلة لا تتعدى الجانب الخطابي؛ هدفها تمجيد الماضي وتجاهل الحاضر.

(٢) منير شفيق، **الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات**، الكويت: دار القلم، ١٩٩٣، ص ٣٥-٣٦.

➢ **وأما التيار الثاني الحداثي**: فيمثله رهط من المفكرين العرب والمسلمين انبهروا بالحضارة الغربية؛ وبالفكر الغربي وما حققه من إنجازات. ويسود هذا الاتجاه الدراسات المسكونة بالأفكار الاستشراقية، وما تمخض عنها من دراسات تعزى إلى تلامذة المستشرقين.

فقد هال رهطا من المسلمين حالةُ الانحطاط والفوضى التي ألمت بالمسلمين؛ مقارنين بين حالة التقدم التي عليها أهل الغرب، فرأوا نجاة الأمة وخلاصها في ذلك المنهج الذي أخذ به الفكر الغربي، وراحوا يستنسخون هذا المنهج ويقحمونه في الدراسات الإسلامية.

وكان من شأن هذا الانبهار أن برزت أزمة منهجية حادة في الدراسات الإسلامية، يعتريها شعور دفين بالمغلوبية الحضارية إزاء الفكر الغربي، وقد أعاق هذا الشعور العقول عن أن تعي بموضوعية مختلف المعطيات؛ سواء التي أنتجها الفكر الإسلامي الأصيل، وما أنتجه الفكر الغربي الوافد، لتقارن بين الجانبين وتأخذ ما ينفعها وتدع ما يضرها. كان الأولى لو انصرفت هِمَمُهم إلى اقتباس آليات التقدم العلمي والتقني، لكن للأسف انصبت دعواتهم على استنساخ المنظومة القيمية الغربية.

إن التحدي الأكبر الذي واجهه الفكر الإسلامي المعاصر يتمثل في مواجهة التحديات الفكرية التي أفرزتها الحضارية الغربية في شتى المجالات، فأما اتجاهات الفكر الإسلامي التراثي فقد هونت من شأن هذه المواجهة والتصدي لها ومعاداتها، وكما يقول الأستاذ محمد مبارك اعتبار كل ما أتى من الغرب مرفوضا[٣]، وأما الاتجاه الحداثي فلم يعد قادرا اليوم على اتخاذ الموقف نفسه، ليس بسبب أن الغرب فرض نفسه كحضارة عالمية فحسب لا يمكن تجاوزها، ولكن لأنه عكف على دراسة الحضارة الإسلامية بمناهج متحيزة ضدها؛ مما كان له أثره الخطير على الفكر الإسلامي.

إن التحدي الأكبر الذي واجهه الفكر الإسلامي المعاصر يتمثل في مواجهة التحديات الفكرية التي أفرزتها الحضارية الغربية في شتى المجالات

هذا التعامل غير الناضج مع الغرب كرس قصورا منهجيا، ولهذا أصبحت مشكلات المجتمع الإسلامي بحاجة إلى مفكرين مسلمين على قدر كبير من الوعي والفهم للحضارة الغربية. وهؤلاء وأمثالهم هم بإمكانهم أن ينفذوا بنظرتهم العميقة والشاملة إلى جوهر المشكلة وأن يتتبعوا بوعي نقاط نشأتها وخطوط تطورها.

(٣) محمد المبارك، **المجتمع الإسلامي المعاصر**، بيروت: دار الفكر، ص ١٠٦.

إن المشكلة الحضارية برزت في السؤال الذي طرحه زعماء الإصلاح وشعورهم بمدى تخلفهم خلال قرون متعددة، كانوا فيها في سبات عميق دون أن يأخذوا بوسائل التقدم المادي ولا حتى بأسباب التطور الفكري والثقافي.

برزت نخبة من العلماء والمفكرين المسلمين المعاصرين استشعروا ووعوا منذ البداية جدية التحديات الآتية من الغرب ونموذجه الحضاري وخطورتها، وانكبوا على معايشتها وإدراكها من أجل استيعابها لبلورة موقف واع وبنّاء، ويأتي في طليعة هؤلاء، **محمد إقبال**، و**مالك بن نبي**، و**محمد عبد الله دراز**، و**إسماعيل الفاروقي**، و**روجيه جارودي**، و**عبد الوهاب المسيري**، وهكذا بدأ يتشكل تيار جديد في الفكر الإسلامي المعاصر أطلق عليه **مدرسة التجديد الحضاري**، وراح يستشف جوهر الأزمة وليس أعراضها.

ثانيا: مدرسة التجديد الحضاري الإسلامي وقراءة الغرب

بدأ في الفكر الإسلامي المعاصر خطابٌ جديدٌ يتجاوز غربة الزمان التي طبعت أدبيات فكر ديني تراثي لم يفلح في تجاوزها، حين عجز عن توظيف آليات اجتهاد القرون السالفة ومناهج تفكيرها وتفسيرها بطريقة صحيحة، ليتجاوز غربة المكان التي ميزت الفكر الحداثي حين استحضر آليات الحداثة الغربية، مع خصوصيتها ومحاولة إقحامها في بيئة مغايرة.

تيار التجديد الحضاري الذي أعنيه؛ هو تيار شامل له حضوره المميز في الفكر الإسلامي المعاصر، لا يقتصر على خطاب اجتهادي يخص قضية فقهية مع أهميتها، أو دعوة سياسية لمقاومة الاستعمار والتبعية للغرب مع ضرورتها، إنه خطاب تجديدي غير مجزأ ينطلق من اعتبار الإسلام مشروعا حضاريا متكاملا، لا يخص بيئة مكانية ولا ظرفا زمنيا ولا جنسا بعينه. تميز هذا الخطاب بتبني أدبيات الدين الأساسية مع عدم تجاوز المعارف الإنسانية القيمية.

يمكن تأريخ بداية بروز هذا اللون من التجديد بمحاولة دراسة الآخر إبان تردي الحضارة الإسلامية الذي عايشه ابن خلدون، فقد ألهمت الحالةُ ابنَ خلدون بأن يضع أول نظرية في فلسفة الحضارة. إن انهيار حضارة أمة تعد كارثة شاملة لكل المجالات لا تختص بجانب واحد؛ لأنها تتبعها كوارث على كل المستويات. مع انهيار الحضارة الإسلامية؛ ظهرت بدع في الدين وجمود في الفقه وشلل عقلي وتمزق سياسي مهّد للاستعمار. لذلك تحدثت دعوة ابن خلدون التجديدية بلغة جديدة تغوص في فهم الظاهرة لتقدم علاجا مناسبا.

ومع عصر ابن خلدون بدأ العد التنازلي في تدهور الحضارة الإسلامية على المستوى السياسي؛ بتمزق الدولة والاستبداد بالحكم والتخلف الاقتصادي؛ بسبب الفساد والترف وتراجع الإنتاج العلمي، وأصيب العقل بالعقم عن النقد والإبداع، في الفلسفة أو الفكر أو الأدب، أما الفقه فقد جمد الاجتهاد فيه بحجة الانتصار لآثار السلف بدون فهم ، وعجز علم الكلام عن تشخيص مشكلة المجتمع الإسلامي في العصر الحديث ومعالجتها.

أسهم هذا الوضع المتأزم للمجتمع الإسلامي في فتح الباب على مصراعيه لدخول الاستعمار الذي أحدث شرخا عميقا وخطرا شاملا. ومع أن الخطاب الإسلامي شكل رصيدا هاما في مقاومة الاستعمار، فانبثقت ثورات التحرير من أحشائه، فإن ما يؤخذ على هذا الخطاب عموما أنه بدأ متعدد الجوانب مشتت الجهود، فقد اقتصر كل فريق على جانب في التجديد وأهمل الجوانب الأخرى، كمن جعل التجديد في الفقه أو في علم الكلام أو في السياسة ونحوها، وفات هؤلاء أن المشكلة عامة مست كل شيء.

لذلك انفرد اتجاه التجديد الحضاري عن بقية المصلحين الكبار بدارسة الآخر في أفكاره النهضوية، سواء على مستوى منهج التحليل أو على مستوى المعالجة وتقديم البدائل.

برز في الأفق نخبة من الأسماء سبقت الإشارة إليهم، ويحدونا الأمل أن تقوم الجامعات ومراكز الأبحاث بتسليط الأضواء على مشاريعهم في دراسة الغرب، باعتبارها مهدت السبيل وعبدت الطريق لأي دراسة إسلامية واعية للغرب، وحسبنا في هذا المقام أن نختصر الحديث عن قامتين، أحدهما من المشرق الإسلامي؛ وهو الدكتور **عبد الوهاب المسيري**، والآخر من المغرب الإسلامي؛ وهو الأستاذ **مالك بن نبي**.

مشاريع اتجاه التجديد الحضاري مهدت السبيل وعبدت الطريق لأي دراسة إسلامية واعية للغرب

وإن يكن أثر الأديولوجيا والتحيز، من بين ملاحظات منهجية وعلمية على هذين المشروعين، بارزا حينا ومتخفيا حينا أخرى، كأي مشروع علمي. فقد كان أثرهما بالغا في لفت الأنظار وإيقاظ الهمم إلى وجوب دراسة الغرب دراسة علمية.

❁ وبصدد دراسة المشروعين وتقييمهما نضع الاعتبارات الآتية:

➢ **الاعتبار الأول**: معايشتهما الحقيقية للغرب وتعرُّفه من قرب.

➢ **الاعتبار الثاني** : كل مشروع يعد ضخما، على الأقل في مرحلته التاريخية، وهي الاستشعار بأهمية دراسة الغرب.

➢ **الاعتبار الثالث**: تقييم المشروعين للاستفادة من العثرات.

إن أهمية المشكلات التي يتصدى لحلها هذا الاتجاه الحضاري وسعة الآفاق لجمع شتاتها حتى تبدو نمطا مركبا، هذا ما عبر عنه الأستاذ مالك بن نبي في قوله إن روح عصر ما بعد الموحدين، المصابة بالذرية **Atomisme** لا تسلك سبيل التكامل بانتهاج التركيب المتآلف **synthese** (٤).

ويعزز هذا الكلام؛ قول الدكتور عبد الوهاب المسيري في وجوب الابتعاد عن النماذج الاختزالية التي ترى الظواهر في إطار ثنائيات صلبة بسيطة، فالنماذج المركبة هي التي تنظر للظواهر في كليتها الحية(٥)،

وبهذا يستطيع المفكر أن يسهم في تنوير مجتمعه بشأن أهم القضايا التي تشغله، وتحديد الأهداف الكبرى التي يسعى إلى بلوغها. فالدين عند محمد إقبال ليس أمرا جزئيا، ليس فكرا مجردا فحسب، ولا شعورا مجردا، ولا عملا مجردا، بل هو تعبير عن الإنسان كله.(٦) يبرز هذا المعنى أكثر وضوحا عند الأستاذ مالك بن نبي في اعتقاده الراسخ بأن "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبنى الحضارات أو تهدمها"(٧)، من هذا المنطلق الواعي بحقيقة الأزمة وأنها حضارية، يدعو مالك بن نبي إلى ضرورة فقه الحضارة الإسلامية منذ بزوغها إلى أفولها. ومن هنا يمكن تعريف الحضارة "بأنها مجموعة العوامل المعنوية والمادية التي تسمح لمجتمع ما أن يوفر لكل فرد فيه جملة الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره، فالفرد يحقق ذاته بفضل إرادة وقدرة ليستا نابعتين منه، بل ولا تستطيعان ذلك، وإنما تنبعان من المجتمع الذي هو جزء منه"(٨).

---

(٤) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ترجمة عمر كامل مسقاوي، دمشق: دار الفكر للطباعة، ط١، ١٩٨٨، ص ١٢٨.

(٥) عبدالوهاب المسيري، **دراسات معرفية في الحداثة الغربية**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، يناير ٢٠٠٦، ص ٤١٣.

(٦) محمد إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، تعريب عباس محمود ، بيروت: ١٩٨٥، ص ٧.،

(٧) مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ترجمة عبدالصبور شاهين، دمشق: دار الفكر: ١٩٨٥ ص ١٩-٢٠.

(٨) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ص١٢٨.

يتضح مما سبق؛ أن مفهوم الحضارة وثيق الصلة بحركة المجتمع وفاعلية أفراده، سواء في إقلاعه في أجواء الرقي والازدهار، أو في هبوطه وتراجعه، ومن أجل ذلك ينبغي أن يتوفر فهم واع وفقه حضاري لكل من يتطلع إلى أن يعيد للأمة مجدها الحضاري، ويحقق لها ازدهارها المنشود.

في هذا الإطار، تأتي أهمية الدراسة الصادرة عن بن نبي والمسيري، والتي حاولا فيها أن يقدّما مقاربة للتجديد الحضاري المنشود.

درج أغلب الباحثين على اعتبار مالك بن نبي بمنزلة ابن خلدون العصر الحديث، وأبرز مفكر أولى عناية فائقة بالفكر الحضاري الإسلامي منذ ابن خلدون، فهو من أرسى قواعد مدرسة التجديد الحضاري في الفكر الإسلامي المعاصر؛ حيث انفرد عن أقرانه من المصلحين بأنه درس مشكلات الأمة الإسلامية انطلاقا من رؤية حضارية شاملة ومتكاملة، فقد انصبت جهوده لبناء الفكر الإسلامي الحديث وفي دراسته المتميزة للمشكلات الحضارية عموما. يقول جودت سعيد: (وكان بذلك أول باحث حاول أن يحدد أبعاد المشكلة على أساس من علم النفس والاجتماع وسنة التاريخ)[٩].

يعتبر مالك بن نبي بمنزلة ابن خلدون العصر الحديث، وأبرز مفكر أولى عناية فائقة بالفكر الحضاري الإسلامي منذ ابن خلدون

إذا كان للأستاذ مالك بن نبي هذا الدور في لفت انتباه الأمة إلى مشكلتها الجوهرية بلغة عصرية لم تعهدها في السابق، فإن الدكتور عبد الوهاب المسيري فتح عهدا جديدا للأمة لكي تعي موقعها الحضاري، فعكف على دراسة الحضارة الغربية المهيمنة، هذا فضلا عن تتبعه على مدى عشرين سنة للظاهرة الصهيونية في عمق وخصوبة وموضوعية، وهو من حيث غزارة مادته العلمية المتخصصة لا يكاد يناظره مفكر مسلم آخر في العصر الحديث، وأسطع مثال؛ موسوعته الشهيرة التي تشبه مصنفات علماء الإسلام قديما إبان ازدهار الحضارة الإسلامية.

(٩) جودت سعيد، **مذهب ابن آدم الأول**، ص ١٤-١٥.

إن المتأمل في عنوان الموسوعة «**اليهود واليهودية والصهيونية**»؛ يحسب أن هذا العمل الموسوعي الضخم ألف فقط للحديث عن اليهودية والصهيونية، ولكن بتصفح لمتنه ندرك بأنه تأريخ عام لتاريخ الغرب، اعتمد المسيري في عمله هذا على كرنولوجية تاريخ الغرب، بحيث أنه أرخ لجميع النزعات الفلسفية التي سادت وتفشت في الغرب من القديم وصولا إلى العصر الحديث. وما بروز الحركة الصهيونية على مسرح الأحداث إلا نتاج طبيعي لحالة مزرية من الانحدار الغربي على كافة المستويات؛ نتيجة لانتصار نسق على آخر في داخل هذه الحضارة.

موسوعة المسيري، ليست للحديث عن اليهود والصهيونية فقط، بل هي تأريخ عام لتاريخ الغرب؛ حيث أنه أرخ لجميع النزعات الفلسفية التي سادت في الغرب من القديم وصولا إلى العصر الحديث

أشير إلى أنني لا أقصد هنا تقديم دراسة وافية ومستفيضة للمشروعين، وإن كان يحدوني أمل الكتابة فيهما تفصيلا، فذلك يستدعي عدة عوامل موضوعية؛ في طليعتها المسح الشامل لكتابات المسيري وبن نبي، فللرجلين رصيد معتبر من الأبحاث حول الغرب، تنوء بها العصبة أولو العلم من المهتمين بدراسة الغرب، وغاية ما نرنو إليه في هذه الدراسة؛ هو بيان أحد أنماط الاهتمام بالدراسة العلمية للغرب ورصد معالمها وتقييمها.

ثالثا: معايشة الحضارة الغربية

ينطلق مالك بن نبي في تحليله للحضارة الغربية من معايشتها، وإن كتابه «مذكرات شاهد القرن» في حقيقته شاهد على هذه الحضارة بكل سلبياتها وإيجابياتها، صاغ فيه الأستاذ تجربته بأسلوب شيق أخاذ ينم عن دراية شاملة وعميقة لهذه الحضارة.

بدأت رحلة مالك بن نبي مع الحضارة الغربية منذ نعومة أظفاره، التحق بالمدرسة الفرنسية الابتدائية وتأثر بأستاذه مارتان **martin** الذي نقش في نفسه الذوق الرفيع وفن الكتابة، فانكب على دراسة الباحثين الغربيين أمثال بيار لوتي **pierre loti**، وكلود فاريا **claude fare**. ولا سيما بيار بورجي **pierre borjier** الذي كان له عظيم الأثر في أن يصقل مواهبه، وهو فتى يافع؛ ليتخلى عن بعض أوهامه وسذاجته.

ولقد كان لهذا الاتجاه أن يأخذ به، حسب رأيه، إلى أبعد الحدود، لولا دروس الشيخ مولود بن موهوب في التوحيد والسيرة، والشيخ بن العابد في الفقه؛ والتي كانت تصحح له من حين إلى آخر بعض المفاهيم والتصورات، فضلا عن دروس الشيخ عبد المجيد الذي كان يحلل فيها بعض وجهات نظره في انحراف المجتمع وتجاوزات الإدارة الفرنسية، وقد عزز ذلك كما يذكر في نفوسنا تأييدا وحماسة.

ومن الكتب الهامة التي اطلع عليها في تلك الفترة واعتبرها من الينابيع البعيدة المؤثرة والمحددة لاتجاهه الفكري، كتاب ''الإفلاس المعنوي للسياسة الغربية في الشرق'' لأحمد رضا، ورسالة ''التوحيد'' لمحمد عبده، وقد أمده ذلك بغنى الفكر الإسلامي عبر العصور.

لقد أسهم هذان الكتابان في تصحيح بعض التصورات التي كانت لديه، سواء فيما يتعلق بالمجتمع الإسلامي أو المجتمع الغربي، وحالا دون انسياقه في الرومانطيقية التي كانت شائعة آنذاك في صفوف ذلك الجيل من المثقفين الجزائريين(١٠).

(١٠) موسى لحرش، **مالك بن نبي، حياته ونتاجه الفكري**، مجلة مالك بن نبي، جامعة الأمير عبدالقادر قسنطينة الجزائر، جويلية ٢٠٠٦، ص ١٦-٤٠.

سافر بن نبي إلى باريس في شهر سبتمبر من العام ١٩٣٠، وفور وصوله سجل اسمه في قائمة الطلبة المعنيين بالمشاركة في امتحانات القبول بمعهد الدراسات الشرقية، ولظروف سياسية مُنع من الالتحاق بالمعهد. وفي هذه المدينة الفرنسية بدأ يتعرف، شيئا فشيئا هذه المرة وبصورة عملية، جوانب من حياة الأوروبيين، خاصة المجتمع الفرنسي، فهو يقول (لقد صفا الجو لاهتماماتي الاستطلاعية وتجولاتي الاكتشافية التي ساقتني ذات يوم إلى متحف الفنون والصناعات بقرب باب سان دونيس حيث وقفت تلك العشية أفكر لأول مرة في الجوانب التكنولوجية للحضارة وأنا أشاهد بين روائع المتحف القاطرة الأولى التي تحركت بالطاقة البخارية والطائرة التي عبر عليها بلير بحر المانش)[١١].

ولم يكن الأستاذ منطويا على نفسه، بل عمد إلى التواصل مع بعض الأسر الفرنسية البورجوازية، فيقول إنها كانت تكشف لي عن الحياة الأوروبية من الداخل في نطاق عائلي، بينما لم يكن في الجزائر يعرفها إلا من الخارج، حسب روايته.

وفي باريس تعرف صدفة على الوحدة المسيحية للشبان الباريسيين التي تدار وتنظم شؤونها طبقا لضرورات شباب يدرس أو يعمل بعيدا عن مكان إقامة الأهل. وهكذا أصبح بن نبي عضوا مسلما يدعو إلى دينه بكل وضوح في هذه المنظمة، وقد أسهم ذلك في نظره كثيرا في تبادل الآراء وإثرائها؛ وذلك انطلاقا من قناعات ومواقف فكرية مختلفة.

أخفق بن نبي في الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية؛ لأن الدخول إلى هذا المعهد كان يخضع في نظره، خاصة بالنسبة لمسلم جزائري مثله، إلى مقياس غير علمي، يذكر ذلك بقوله: «لم تبد لي أية صعوبة في الاختبارات، ولكن كانت خيبة أمل، لم أنجح، وليس هذا كل ما في الأمر، بل لقد طلبني مدير المعهد، وفي هدوء مكتبه الوقور شرع يشعرني بعدم الجدوى من الإصرار على الدخول إلى معهده، فكان الموقف يجلي لنظري بكل وضوح هذه الحقيقة: إن الدخول لمعهد الدراسات الشرقية لا يخضع بالنسبة إلى مسلم جزائري لمقياس علمي وإنما إلى مقياس سياسي».

التحق بعد ذلك بمدرسة اللاسلكي لدراسة هندسة الكهرباء، وهناك أدرك أنه قد دخل هذه المرة إلى الحضارة الغربية من باب آخر بعد أن دخلها من باب وحدة الشبان المسيحيين الباريسيين، فالساعات التي كان يقضيها في الورشة لم تكن كما يقول: «مجرد لعب، بل كانت ممتلئة بشعور الوارد على دين جديد تجاوزا يقوم بطقوسه في معبد هذه الحضارة الآلية التقنية، ولم تكن أيضا تخلو من ملاحظات وبواكير لتفكير اجتماعي بدأت تخامر عقلي، فبينما تلك الأدوار البسيطة في يدي أشعر بأنها ليست لمجرد اللعب، بل هي دلائل على مقدار تطور المجتمع لأن المجتمع البدائي آلته اليد والإصبع».

---

(١١) مالك بن نبي، **مذكرات شاهد القرن**، بيروت: ط١، ١٩٧٠ ص ١٢.

لقد أثار ذلك فيه شغف البحث أكثر عن سبل تطوير مجتمعه والتحاقه بالركب الحضاري، وأثناء الفترة الدراسية انكب على تبادل الرأي مع زملائه الطلبة في الحي اللاتيني حول آراء عدد من المفكرين العالميين؛ أمثال نيتشه وسبينوزا، حتى تخرج سنة ١٩٣٥م مهندسا في الكهرباء.

كما عكف على مطالعة كتب بلزاك التي أمدته بمعلومات نفيسة عن حياة المجتمع الفرنسي عندما بدأت بعد العهد النابليوني انطلقاته في العهد الصناعي، لقد كانت هذه المطالعات وهذه الملاحظات وهذه الموازنات كلها كما يذكر حقلا خصبا للأفكار الاجتماعية الناشئة.

تزوج في عام (١٣٥٠هـ/١٩٣١م) من امرأة فرنسية أسلمت على يديه، وأسهمت زوجته في تنمية ذوقه وحسه الجمالي، ويعترف بن نبي بأن لزوجته الفرنسية الفضل في التجاوب مع محاسن الغرب الجمالية.

لبث ابن نبي في أوروبا أكثر من ثلاثين سنة، أعانته في إظهار ذاتيته وإيقاظ الشعور في نفسه وفكره وتحرره من قبضة الثقافة الغربية[١٢]، واستطاع أن يوسع شبكة علاقاته الفكرية والثقافية في باريس، فالتقى هناك بشكيب أرسلان وغاندي.

➢ إذا كان هذا شأن الأستاذ مالك بن نبي في معايشة الحضارة الغربية، فكيف كان حال الدكتور المسيري؟

(١٢) المرجع نفسه، ص ١٢-١٠٩.

سافر المسيري إلى أوروبا طلبا للعلم عام ١٩٦٣ وعمره خمسة وعشرون عاما بعد حصوله على منحة للدراسة. التحق بجامعة كولومبيا، وهي كما يذكر المسيري جامعة عتيدة كانت تضم بعض أهم أساتذة الأدب الإنجليزي في العالم، وبعد مرور سنتين من دراسته في تلك الجامعة؛ حصل على شهادة الماجستير، ثم التحق بجامعة رتجرز في مدينة نيوبرونزويك بولاية نيوجرسي وذلك للحصول على درجة الدكتوراه.

أكمل المسيري رسالته للدكتوراه في ٩ يونيو ١٩٦٧ بعنوان «الأعمال النقدية لوليام وردزوت ووولت ويتمان دراسة في الوجدان التاريخي والوجدان المعادي للتاريخ» تحت إشراف الدكتور ديفيد وايمر.

من ألمع أساتذة المسيري الذين درس عليهم في أمريكا الدكتور ديفيد وايمر وليام فليبس، أستاذ النقد الأدبي، وهو من كبار المثقفين الأمريكيين اليهود، والبروفسور وليام كيلوج، أستاذ أدب العصور الوسطى.

ومن أهم المؤلفات التي ساعدت المسيري على بلورة مرجعيته ومنهجه التحليلي؛ كتابات كارل ماركس الإنسانية، وكتابات جورج لوكاتش، وروجيه جارودي، وماكس فيبر، وعلي عزت بيغوفيتش.

وأثناء إقامته في أمريكا؛ تعرف هناك إلى نخبة من المفكرين والأدباء، نذكر منهم الحاخام يوسف بيخر، وهو حاخام أرثوذكسي كان معاديا للصهيونية من منظور ديني، وكانت له مناظرات عديدة مع أقطاب الصهيونية، مع حاييم هرتزوج رئيس دولة إسرائيل السابق حينما كان رئيس وفد بلاده لهيئة الأمم المتحدة ، كما جادل الباحث البروفسور بن هاليرن عميد كلية الحقوق بجامعة تل أبيب عام ١٩٧٧م. التقى في أمريكا بكافين رايلي المؤرخ الأمريكي المشهور.

وقد مكث المسيري فترة طويلة مع الفكر الماركسي دامت قرابة ثلث قرن تقريبا ١٩٥٤-١٩٨٤م، تعمق خلالها في معرفة أحد أهم النماذج المادية المهيمنة على العالم في ذلك الوقت، من الداخل، تجسدت في رصد موطن القصور والضعف في هذا النموذج.

وتجدر الإشارة إلى أن الدراسة الأدبية أتاحت للباحث دراسة تاريخ الفكر الغربي والمؤسسات الحضارية الغربية المختلفة، فكل مجتمع وكل أمة لها أدبها الذي يحمل فلسفتها وعاداتها وتقاليدها، كما يحمل في داخله الانسجام أو التوتر في علاقة الأديب بهذه التصورات والعادات، وقد أفاده ذلك في دراسة الجماعات اليهودية واكتشافه كثيرا من السمات التي تتميز بها باعتبارها سمات غربية تماما ولا تدل على الخصوصية اليهودية، كذلك يسرت له معرفة اللغة الإنجليزية –لغة الغالبية الساحقة من يهود العالم– قراءة المراجع الأساسية عن اليهود واليهودية والصهيونية وإسرائيل والتنقل بين مكتباتها المختلفة، مكتبة الكونغرس، ومكتبة مدرسة اللاهوت اليهودية التابعة لجامعة كولومبيا(١٣).

معايشة بن نبي والمسيري للحضارة الغربية كانت عميقة ومتجذرة، لم تتجاوز السطحية والشكلية في دراسة الغرب فحسب بل تجاوزت حدود الافتتان والانبهار أيضا.

ولكن المسيري الذي ذهب إلى الولايات المتحدة في الستينيات لدراسة الشعر الرومانتيكي الإنجليزي والأميريكي؛ ولج إلى العلاقة الخاصة بين الرومنتيكية والصهيونية والغرب، مما خلف نتاجا غزيرا يستشف فيه أنماط التفكير الغربي.

يتضح مما سبق أن معايشة بن نبي والمسيري للحضارة الغربية كانت عميقة ومتجذرة، لم تتجاوز السطحية والشكلية في دراسة الغرب فحسب بل تجاوزت حدود الافتتان والانبهار أيضا.

(١٣) المسيري، **رحلتي الفكرية**، ص ١٠٥–٣٩٠.

❁ **تميزت هذه المعايشة للحضارة الغربية من خلال ما يلي:**

➢ الدراسة العلمية والأكاديمية في المدارس والجامعات الغربية بلغاتها، فإذا كان عالم الأفكار عند مالك بن نبي لبس لبوس التفكير العلمي والرياضي، فإن المنظومة الفكرية للمسيري كستها النزعة الفلسفية العميقة، وهذا من شأنه أن يثري الخطاب الإسلامي ويغنيه.

➢ الانفتاح والتواصل مع الآخر، سواء كان من عامة الناس أو الخاصة من علماء وحكام.

➢ خلفت هذه المعايشة عن قرب للحضارة الغربية موقفا معرفيا واضحا حول الحضارة الغربية بتحليل القيم الأوروبية، ينتقد مالك الإصلاحيين الدينيين في عدم قدرتهم على فهم الظاهرة الغربية لأنه كان يحمل تصورا واحدا، فالكفر ملة واحدة "هذه فترة من تاريخ أوروبا وقد أصابها الانفصال في أوضاعها الأخلاقية والسياسية والاجتماعية، وهي الفترة المعاصرة لجبروت العصر الاستعماري، ولبوادر النهضة الإسلامية الأولى، وبهذه الدفعة المادية المزدوجة، دفعة البرجوازية، ودفعة البروليتاريا، تجلت أوروبا للعالم الإسلامي فأدرك نفوذها في تطوره الفكري والسياسي فهو لم يكتشف في أوروبا حضارة بل اكتشف فوضى، كانت تتعاظم داخلها الانفصاليات طبقا لعاملين كان لهما في هذا الشأن وزن كبير هما: سرعة النمو العلمي والتوسع الاستعماري".

إن النظام الذي خلق الفوضى في أوروبا، كما يذكر بن نبي، ذو صبغتين؛ فهو علمي واستعماري في آن، فإذا ما كان في أوروبا فكر بمنطق العلم، فهو إذا امتزج في العالم يفكر بعقلية الاستعمار.

وإلى هذا الاتجاه يذهب المسيري الذي يرى أنه حين كانت الظاهرة الغربية الحديثة تؤكد أنها حضارة إنسانية جعلت من الإنسان مركز الكون، وكانت المجتمعات الغربية مجتمعات لا تزال متماسكة من الناحية الاجتماعية والأسرية، ولم يكن كثير من الظواهر السلبية التي نلاحظها بأنفسنا ونقرأ عنها في صحفهم ومجلاتهم والتي أصبحت نمطا ثابتا وظاهرة محددة قد تأصلت بل كانت مجرد حوادث متفرقة لا ظواهر دالة ومن ثم كان من السهل تهميشها، ومن هنا كان دعاة الإصلاح كلهم ينادون بضرورة اللحاق بالغرب، ولم يكن هناك أصوات تعارض الحداثة أو تنتقدها، بل كان الجميع يُسبّح بحمدها، والمسيري يعذر أصحاب هذا الاتجاه فيعتبرهم محقين إلى حد كبير في هذا، فشكل الحداثة الذي أدركوه له سحر أخاذ.

ولكن مع مرور الوقت كما يؤكد المسيري ينكشف الوجه العدواني عندما أمطرتنا الحداثة الغربية بجيوشها الاستعمارية لتحول بلادنا إلى دمار شامل، ومصدر للمواد الخام والعمالة الرخيصة وسوق مفتوحة بشكل دائم للسلع الغربية، أما أولئك المنبهرون الذين حلوا بالعواصم الغربية فلم يروا سوى النور والاستنارة في الوقت الذي كانت المدافع الغربية تدك بلادنا دكا، أما هؤلاء الذين بقوا في بلادهم في آسيا وأفريقيا فقد عرفوا ألسنة النيران الملتهبة، وسمعوا دوي القنابل وشموا رائحة البارود(١٤).

➢ وبهذا تنكشف الملامح الحقيقية للحضارة الغربية عند مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري على سبيل المثال لا الحصر.

(١٤) المسيري، **دراسات معرفية**، ص ٣٥.

رابعا: تعدد الأنساق المعرفية الغربية:

كما بينا سابقا، ظل قصور بارز يطبع آراء حركات الإصلاح الدينية المعاصرة في فهم الحضارة الغربية فهما عميقا، حيث تمركزت نظرتهم حول النزعة العدائية التي راحت الحضارة الغربية تبثها ضد الشعوب والأجناس الأخرى، لذلك أولى المفكرون الإصلاحيون عناية فائقة بآراء المفكرين الغربيين الذين يتناولون بالنقد النظامين الرأسمالي والاشتراكي دون سواهما، أو يبرزون الوجه المظلم للحضارة الغربية مثل تفشي حالات الانتحار، والإدمان على المخدرات، والجرائم، وتفشي حالات الأمراض النفسية والعصبية، ناهيك عن نزوع الغرب نحو التسلح بامتلاك القنابل الكيميائية والنووية، وما يتهدد العالم من حرب مدمرة.

إن أهم مصائبنا اليوم؛ نابعة عن قصور في فهمنا لحقيقة هذه الحضارة وما تملكه، وقد لاحظ كل من مالك بن نبي والمسيري هذا القصور في فهم الحضارة الغربية وحذرا من عواقبه، فالغرب ليس مفهوما مطلقا بل هو مسألة نسبية، كما يقول مالك بن نبي، فإذا أدرك الفكر الإسلامي المعاصر هذا؛ فسيكون من السهل عليه أن يعرف أوجه النقص فيه، كما سيتعرف على عظمته الحقيقية، وبهذا تصبح الصلات والمبادلات مع هذا العالم الغربي أعظم خصبا، بحيث تظفر الصفوة المسلمة إلى حد بعيد بمنوال تنسج عليه فكرها ونشاطها.

ونجد صدى هذا الكلام يتردد عند الدكتور المسيري في قوله: إننا إذا اكتشفنا أن الغرب نسبي وليس مطلقا، فستكون علاقتنا به مستريحة؛ يمكن أن نأخذ منه ما نريد ونرفض ما نريد. وليست المسألة كما عبر عنها سلامة موسى أو طه حسين من أن التحضر يعني أن نأخذه بحلوه ومره. لذلك كان لابد على الخطاب الإسلامي المعاصر أن يدرك أن الغرب ليس غربا مسيحيا، وإنما هو غرب وثني وعلماني وغنوصي ويوناني ونحوه، فهو يشكل مجموعة من الأنساق المعرفية، يطل نسق حينا ويختفي آخر، وهكذا دواليك.

وهذا الغرب في وعي كل من المسيري وبن نبي ليس كتلة واحدة متجانسة، بل هناك أكثر من غرب، فداخل الحضارة الغربية الحديثة توجد نماذج كثيرة؛ النموذج المسيحي، والنموذج الإنساني، والنموذج الاحتجاجي. لكن ما ساد تاريخيا هو النسق المعرفي المادي؛ تنظر المؤسسات السياسية والثقافية والغربية للواقع من خلاله وتتعامل مع ذاتها ومع العالم تحت مظلته.

الغرب في وعي كل من المسيري وبن نبي ليس كتلة واحدة متجانسة، بل هناك أكثر من غرب، فداخل الحضارة الغربية الحديثة توجد نماذج كثيرة

النزعة التقويمية:

نعني بالنزعة التقويمية للحضارة الغربية؛ ذلك الإدراك الواعي بحقيقة الحضارة الغربية من خلال إفرازاتها الحضارية المتعددة الأبعاد في العصر الحديث ومدى انعكاساتها على ذلك العصر.

إن معرفة على هذا المستوى تتطلب معايشة هذه الحضارة لفهم تركيبتها وأنماطها، وقد كان لكل من بن نبي والمسيري حظ وافر في معايشة هذه الحضارة، والفكر الإسلامي المعاصر في أمس الحاجة للاستفادة من هذه التجارب الحية بعيدة عن الأحكام المسبقة والمتشنجة.

في الغالب الأعم، يبدأ المسيري حديثه عن الحداثة الغربية بالتأكيد على ما يعتبره النموذج المهيمن في الحضارة الغربية، وهو نموذج مادي كموني يؤمن بأن الواقع المادي مرجعية ذاته، وأنه مكتف بذاته بحيث لا يحتاج إلى عوامل خارجية لتفسيره، ولكن في الحقيقة يستغرب الباحث من استبعاد المسيري للنماذج المعرفية الأخرى التي تتجاوز الفلسفة المادية، وسيادة هذا التصور لا تجعل المسيري يتحدث عن النموذج الغربي بشكل عام، باعتباره ظاهرة ثقافية حضارية شهدت اهتماما كبيرا بحرية الانسان.

النـزعة العدوانية

أظهر تيار التجديد الحضاري مهارة فائقة في تشخيص النفسية الأوروبية وفهم أغوارها، يتفق مالك بن نبي وعبد الوهاب المسيري على أن نزعة عدوانية تسري في عروق الحضارة الغربية تجاه الآخرين، وهي نتاج ترسبات لأحداث تاريخية. يشير إلى هذا المعنى الأستاذ مالك بن نبي في قوله «أما فيما يتصل بأوروبا فإن ما ألصقته القرون بعاداتها وصبغت به حياتها يشق على الاتجاه الجديد أن يعدل حرفه»، ويرجع مالك ذلك إلى النفسية المركبة للأوروبي من التراكمات التاريخية لعلاقة الأمم، وهنا فهو يرسي دعائم علم جديد في فلسفة التاريخ، علم نفس المجتمعات. يتحدث فيه عن ظاهرة تخلف الضمير وعدم مواكبته لتقدم العلم. تخلف الضمير في نموه عن العلم وعن حركة الفكر. فما الضمير إلا تلخيص نفسي للتاريخ، وخلاصة لأحداث الماضي منعكسة على ذات الإنسان، فهو بلورة للعادات والاستعدادات والأذواق.

يتفق بن نبي والمسيري على أن نزعة عدوانية تسري في عروق الحضارة الغربية تجاه الآخرين، وهي نتاج ترسبات لأحداث تاريخية

وهنا يتحدث مالك عن الغرب الاستعماري، وأن العدوان والعنصرية متأصلة فيه، ومن ناحية أخرى لا بد أن نبين للناس -أيضا- أن المنظومة الحداثية مرتبطة بالاستهلاكية والتوجه نحو اللذة. وقد استطاع الإنسان الغربي أن يحقق معدلات عالية من الاستهلاك واللذة، مرة أخرى، عن طريق النهب الاستعماري، تلكم مأساة الحضارة الحديثة في عمقها كما يذكر بن نبي؛ فإن الضمير الحديث لم يتمثل بعد أغلب ما حققه العلم من مخترعات كما أكد مالك بن نبي أن خطر هذه النزعة يلحق أضرارا بالغة للحضارة.

إن هذا الاتجاه لا يحصر خطر هذه النزعة على الإنسان المسلم فحسب، وإنما خطرها يمس الإنسان من حيث هو إنسان، حتى الإنسان الغربي يلاحقه خطرها، هذا ما أقره الأستاذ بن نبي، فالاستعمار إذا كان قد ألحق ضررا بليغا بالبلدان المستعمرة فقد أضر كذلك بالحياة الأوروبية ذاتها، لأن الاستعمار الذي يهلك المستعمرين ماديا يهلك أصحابه أخلاقيا.

الاستعمار إذا كان قد ألحق ضررا بليغا بالبلدان المستعمرة فقد أضر كذلك بالحياة الأوروبية ذاتها، لأن الاستعمار الذي يهلك المستعمرين ماديا يهلك أصحابه أخلاقيا.

وهنا يدق مالك بن نبي ناقوس خطر الحضارة الغربية على العالم إذا استفزت أفكارها وأساطيرها لأن أثره عالمي، كما يؤكد مالك أن التهور الأوروبي تهور ذو دوي وضجيج، بل إن الأساطير الأوروبية نتائجها وخيمة ومهلكة، لأن المادة في قبضتها تتصرف فيها كما تشاء، وما دام الأمر كذلك فيوشك أن تهدم كل شيء بطريقة علمية، فتنسف بقنابلها الذرية البلاد والعباد(١٥)، وخير دليل على هذا الكلام؛ العربدة الأمريكية على العراق وما خلفته من دمار شامل، لذلك فنزوة عاطفية مهما علت ليس بإمكانها مواجهة حضارة بهذا الزخم العلمي والترسانة العسكرية الهائلة.

والدكتور عبد الوهاب المسيري كشف النقاب عن هذه النزعة العدوانية التي لم تنته بمجرد خروج الاستعمار من البلاد الإسلامية بل إنها صفة متأصلة فيه، وما العربدة الأمريكية ضد العراق سوى تعبير عن إدراك المؤسسة الحاكمة الأمريكية لهذه الحقيقة، فهي ترغب في بسط هيمنتها على مصادر الموارد الطبيعية في عالم تتناقص فيه هذه الموارد؛ حتى يمكنها الاحتفاظ للإنسان الأمريكي بمعدلاته الاستهلاكية العالية(١٦).

(١٥) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ١٤١.

(١٦) المسيري، **دراسات معرفية**، ص ٣٥.

وتبعا لما سبق، يرى المسيري أن الإبادة النازية هي واحدة من أبرز الإفرازات السيئة للحداثة الغربية في مرحلة الصلابة، ولا يعتبرها مسألة يهودية أو مشكلة ألمانيا، والأهم من ذلك والأخطر في الوقت نفسه؛ هو تأكيد المسيري على أنها نتاج طبيعي للرؤية الحضارية الغربية، وليست انحرافا عنها؛ لأن الحضارة التي أفرزت الإمبريالية الشمولية والمنفعة المادية والداروينية، وفلاسفة العرقية الحديثة هي الحضارة التي أفرزت رؤية إبادة وصلت إلى قمتها في اللحظة النازية.

ولا يشك باحث في أن السياسة الدولية الغربية الراهنة، إنما منشؤها ومصدرها هو الإرث الفلسفي الغربي الضارب جذوره في عصر التنوير، وهو عصر تميز بكونه نسقا فكريا عاما مرتكزا على عدد من الأدبيات الأساسية.

يرى المسيري أن الإبادة النازية هي واحدة من أبرز الإفرازات السيئة للحداثة الغربية، ولا يعتبرها مسألة يهودية أو مشكلة ألمانيا، والأهم من ذلك تأكيده على أنها نتاج طبيعي للرؤية الحضارية الغربية، وليست انحرافا عنها

إن استحضار أدبيات الفلسفة الغربية الحديثة يدخل ضمن الحديث عن المقاربة الإبستيمولوجية بينها وبين التطرف والعنصرية، وهي تشكل بنية معرفية نسقية تتحكم فيها الاعتبارات الذاتية بجانب الاعتبارات الوضعية. وعلى هذا الأصل نتحدث في تاريخ الفلسفة الغربية عن فلسفات واتجاهات مذهبية، أفرزت عددا من الرؤى المتطرّفة التي أدت إلى ممارسة الإرهاب الفعلي، وليس أدل على ذلك من اعتبار البشر الآخرين غير الغربيين مجرّد سلع انتهت صلاحيتها، واعتبارها نفايات تستدعي التخلص منها على غرار مختلف السلع التي تلاقي هذا المصير.

ويمكن القول، إن بداية هذا النقد والرفض على حد سواء، في مستواه النظري والفلسفي، كان مع الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه في القرن التاسع عشر، ودعم هذا التوجه النقدي للحداثة ومشروع التنوير آراء الفيلسوف الوجودي مارتن هيدغر، وتعزز مع أنصار نيتشه وهيدغر من الفلاسفة المعاصرين أمثال فوكو ودريدا وليوتار.

ولا نشك في مدى تأثر كل من المسيري وبن نبي ببعض الشخصيات الغربية الناقدة للفلسفة الغربية وجذورها الفكرية.

النـزعة العلمية:

رغم النزعة العدوانية التي طبعت الحضارة الغربية في تعاملها مع المجتمع الإسلامي، لا يمكن لهذا المجتمع أن يغض الطرف عما تميزت به هذه الحضارة من نزعة علمية، يقول مالك بن نبي «فإذا ما أدرك العالم الإسلامي أن صدق الظواهر الأوروبية مسألة نسبية، فسيكون من السهل عليه أن يعرف أوجه النقص فيها، كما سيتعرف عظمتها الحقيقية، وبهذا تصبح الصلات والمبادلات مع هذا العالم الغربي أعظم خصبا، بحيث تظفر الصفوة المسلمة إلى حد بعيد بنموذج تنسج عليه فكرها ونشاطها».

ومالك بن نبي يدعو إلى تفكيك أنساق هذه الحضارة؛ ليتيح لنا أن نقف أمام نظام أوروبا كإنسان لا كمستعمر، وبذلك تنشأ حالة من التقدير المتبادل، والتعاون المثمر، بدلا من تلك العلاقة المادية الجافة التي تنبعث من علاقة أوروبا المستعمرة بالعالم الإسلامي القابل للاستعمار. هكذا ظل يدعو إلى ضرورة الاطلاع على الفكر الغربي العقلاني منه.(١٧)

يكمن الرصيد الحضاري للغرب وتفوقه في ثلاث كلمات: العلم والتقدم والحضارة، فقد خطت منها أفكارا مقدسة سمح لها أن ترسي داخل حدودها قواعد حضارة القرن العشرين وأن تبسط خارج حدودها سلطتها على العالم، زودتها بالفعالية. بالإجمال فإن أوروبا ركبت في مضمون ثقافتها مزيجا من الأشياء والأشكال التقنية والجمالية.(١٨)

إلى جانب دعوة مالك بن نبي إلى الاستفادة بالتقنية الغربية، يهيب بالأمة أن تأخذ بالجانب الجمالي الذي يميز هذه الحضارة، فهو لا يجد حرجا في الاعتراف بفضل زوجته الفرنسية التي أيقظت في نفسه الحس الجمالي والذوق الرفيع. ويبدو هذا متشابها عند الدكتور المسيري عندما لاحظ أحد الصحافيين أثناء حواره للمسيري طريقة تصميم المنزل حيث إن غرفة الطعام كانت على الطراز الإنجليزي لكي يشير إلى أن في الغرب حضارة إنسانية أيضا.

إن العالم الإسلامي لا يمكنه أن يعيش في عزلة وانطواء، فليس الهدف أن يقطع علاقته بحضارة تمثل وتشكل إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل المهم أن ينظم هذه العلاقات معها.

---

(١٧) مالك بن نبي، **وجهة العالم الإسلامي**، ص ١٣٧-١٤٧.

(١٨) مالك بن نبي، **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، ص ١٠٢.

وحرصا من المسيري على الاستفادة من الرؤية العلمية للغرب؛ يرفض نظرية المؤامرة التي لا تستند لقواعد علمية واضحة، ويؤكد أن ثمة مخططات، ولكن النظرة التآمرية بالاكتفاء بها وحدها في تفسير التاريخ؛ تتجاهل التفاصيل والتاريخ وتؤبد المؤامرة، كما رفض المقولات اللفظية الشائعة والصور النمطية السائدة والصيغ المسبقة الجاهزة، ولذلك يشيد المسيري بإنجازات الحضارة الغربية التي نجد لها صدى كذلك عند مالك بن نبي ومن أهمها:

إن العالم الإسلامي لا يمكنه أن يعيش في عزلة وانطواء، فليس الهدف أن يقطع علاقته بحضارة تمثل وتشكل إحدى التجارب الإنسانية الكبرى، بل المهم أن ينظم هذه العلاقات معها

- ❖ الإدارة الرشيدة في تسيير مجتمع عن طريق مؤسسات اجتماعية وسياسية وثقافية واقتصادية قادرة على حل المشاكل العويصة وتسوية النزاعات والتصدي للأزمات دون الرجوع إلى العنف، وعلى وضع المخططات التي تضمن رفاهية المجتمع واستمراره.
- ❖ نجاحه في حل مشكلة التداول على السلطة بدون عنف أو سفك الدماء.
- ❖ احترام حقوق الإنسان السياسية وتأكيد حرية الفرد.
- ❖ تكوين دولة الرفاه التي تضمن للإنسان الحد الأدنى من احتياجاته الضرورية في شكل نظام صحي ونظام تعليمي.
- ❖ تفعيل دور المرأة وتأكيد حيزها المستقل.
- ❖ بناء العقلية النقدية التي أثمرت قدرات إبداعية خلاقة.
- ❖ تطوير مناهج البحث بما يستجيب لمتطلبات المجتمع المتسارعة.
- ❖ إنشاء المؤسسات الكبرى من خلال اندماج مختلف الشركات، وكذا اتحاد الدول المختلفة في تكتلات سياسية أو اقتصادية رغم اختلاف مذاهبها الدينية ولهجاتها.

كما يؤكد المسيري وبن نبي على أنه يجب عدم التقليل من قيمة الإبداع الفردي الغربي، فهي إبداعات مهمة وإسهامات حقيقية للتراث الإنساني، والمسيري يهيب بالأمة ألا تقتصر على استلهام هذه التجربة، بل ينبغي أن تستفيد من بلدان أخرى كالصين.(١٩)

(١٩) **دراسات معرفية**، ص ٦٨-٨٧.

في الختام

يمكن التأكيد على أن ما يسعى إليه هذا البحث؛ هو لفت الأنظار وشحذ الهمم نحو دراسة علمية للغرب، ولم يعن بالدراسة النقدية والملاحظة المنهجية للمشروعين، وإن كنا ندرك حجم هذه الانتقادات وأهميتها، لكن بحسب البحث أنه أخذ على عاتقه الاستشعار بأهمية القراءة العلمية للغرب عند نخبة من المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ونصب الحديث عن مشروعين كان لهما بالغ التأثير وما زال في عالمنا الإسلامي، وإن كنا نعترف بأنه ليس هناك عمل علمي رصين يرتقي إلى مصاف الدراسات الاستراتيجية التي نتطلع إليها في دراسة الغرب، وفي المقابل لا يمكن لنا أن نغمط الناس حقهم، أو أن نبخسهم بضائعهم، وقد كانت جهودا فردية تحكمها ظروف تاريخية شديدة التعقيد، بل نرى أن ما قدمه أقطاب المدرسة التجديدية الحضارية من أمثال، محمد إقبال، وإسماعيل الفاروقي، ومحمد عبد الله دراز، وبن نبي، والمسيري، يشكل أرضية للانطلاق نحو تأسيس **علم الاستغراب**.

والمسيري نفسه يعترف بأن عملية تجريد النموذج المعرفي الغربي لا يمكن أن تكون عملية فردية، فهي بحاجة إلى عملية جماعية مؤسسة، ونهيب بالجامعات والمؤسسات البحثية في عالمنا الإسلامي الأخذ بمسؤولياتها في إثراء الوسط البحثي والأكاديمي بدراسات علمية رصينة حول الغرب، تتجاوز نمط التعاطي النرجسي الساذج، المسكون بالهجاء والرفض.

مدرسة التفكيك

الأستاذ الدكتور: عز الدين معميش
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ـ جامعة قطر

مقدمة:

يُعد التفكيك من المناهج الجديدة في عالم دراسة النصوص وتتبع الأفكار وتاريخها؛ حيث حاول مؤسسوه طرْق محاور جديدة ومناقشة رؤى مبتكرة في عالم التحليل النصي، والذي أصبح له من الاهتمام ما غيّر أولويات الدراسات الاجتماعية والإنسانية وحتى النفسية. فقد شكّلت المدارس الحداثية وما حملته معها من هزّات سياسية واجتماعية وثقافية عنصرًا هامًا، وبل وأساسيًا، في ذيوع صيت فلسفة التحليل النصي الجديد في فرنسا وخارجها؛ وجد فيها النقاد ملاذًا بعد خيبة الظن في ليفي ستروس ومدرسته البنيوية في مناحيها المعرفية ومواقفها السياسية والإناسية.

وقد تبنى معظم النّقاد الأمريكيين بعشق شديد مناهج جديدة قائمة على العلامات الخفية وانفكاك الدال عن المدلول وتقويض مفهوم الهوية؛ وصل إلى درجة التنظير والتأطير، خاصة لدى أعمدة جامعة (ييل) كدي مان، ووف، وسابير،... وغيرهم، والأمر نفسه ينطبق على النقّاد الألمان والروس ثم الانجليز .

وكان للجو الفلسفي المتذبذب في أوربا، دورٌ مهم في شيوع أنماط جديدة من النقد في الفكر الغربي؛ حينما سيطرت فلسفة الشك على كل الميادين ابتداءًا من الحرب العالمية الثانية، وتبلور رؤية مطلقة تقول بنسبية المناهج والقراءات، ونسبية الخير والشر، وولادة ما اصطلح عليه بالأزمنة الحديثة، وهو الزمان الذي يقوم على تجاوز فلسفة الميتافيزيقا والحضور، ويهدف إلى ترجيح الأنساق الخارجية على الذات في مستويات النص والإنسان والحضارة والتاريخ، ويوظِّف كل أدوات الشك لتحطيم المرجعيات والمطلقات والسكونيات؛ أخذًا بمبدأ المنفصل والمنبثق أصلاً عن نظرية تجريبية.

ولعل المدرسة التفكيكية، من أبرز المدارس التي سيطرت على الأنماط الجديدة في الفكر الغربي، وكان لها الدور الأبرز في صياغة رؤى جديدة، أثرت في الثقافة والسياسة والاجتماع، ونقلت الحضارة الأوربية إلى مرحلة لم تعرفها من قبل؛ أطلق عليها بمرحلة ما بعد الحداثة، حيث تجاوزت جل المفاهيم الحداثية المؤسسة طيلة قرون الأزمنة الحديثة.

المدرسة التفكيكية، من أبرز المدارس التي سيطرت على الأنماط الجديدة في الفكر الغربي، وكان لها الدور الأبرز في صياغة رؤى جديدة، ، ونقلت الحضارة الأوربية إلى مرحلة لم تعرفها من قبل

وقد برز بداية، وعلى نطاق واسع وقبل ظهور التفكيكية، مصطلح النقد؛ والذي لقي اهتمام العديد من النقاد، فهو موضوع دقيق وهام، وذو اتصال وثيق بالفلسفة، والتاريخ، والسياسة، وعلم الاجتماع... وغيرها من مجالات حياة الإنسان، وينزل منزلة رفيعة في المشروع النقدي العالمي، «أساس لكل ما نراه من خلل أو انحراف أو ضبط منهجي»[١]. وفكرة المشروع غلبت على الخطاب النقدي الأنجلو أمريكي مع المفكر الأمريكي (جون كرو رانسوم) [٢] في كتابه **The New Criticisme**. حيث صار عنوان كتابه فيما بعد عنوانا للمدرسة، والتي عُرفت بمدرسة النقد الجديد[٣]، ومن أشهر روادها، طوماس إليوت، آلان تيت، سبنجارن، وغيرهم. وتلتبس هذه المدرسة بنظيرتها الفرنسية، خصوصا من خلال المحاورات التي دارت بين النقاد الكلاسكيين والنقاد الحداثيين، حيث شاع عندهم مصطلح «النقد الجديد» بصبغته الفرنسية **(nouvelle critique)** خلال الستينيات من القرن الماضي[٤].

---

(١) خلدون الشمعة: **المنهج والمصطلح _ مدخل إلى أدب الحداثة**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٩،ص٤٩.

(٢) محمد غنيمي هلال: **النقد الأدبي الحديث** ط١ دار العودة، بيروت ١٩٨٢، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٣) حركة نقدية أنجلوأمريكية شهيرة، سادت خلال النصف الأول من القرن العشرين ، وكانت سنة ١٩٤١سنة حاسمة في مسارها ونقطة انعطاف في تاريخ النقد العالمي برمته، لأنها السنة التي ظهر فيها " إنجيل " هذه الحركة ؛كتاب جون كرو رانسوم jhon crowe ransom الذي صار عنوانه اسما للمدرسة كلها؛ مدرسة (النقد الجديد)

(٤) محمد غنيمي هلال: **النقد الأدبي الحديث** ط١ دار العودة، بيروت ١٩٨٢، ص ٣١٨.

هذه الجهود؛ رسمت الطريق للعديد من المهتمين بالنظريات الغربية الحداثية، أو المناهج النقدية الجديدة، كالبنيوية والتفكيكية والأسلوبية والسميائية. وتجلى هذا النقد بشكل واضح في السبعينيات من القرن الماضي، في كتاب الفيلسوف الفرنسي ليوتارد: (**علم ما بعد الحداثة**) وعنى بها التعددية الثقافية وتعدد أنماط الحياة(٥). وعزا أسبابها إلى الثورة المعرفية فى مجال المعلومات بفضل تكنولوجيا الاتصالات؛ مما أوجد حالة فريدة في التناص والتداخل الفكري والعقدي والثقافي، ساعدت فى نقل الفكر من الحداثة إلى ما بعد الحداثة، وهو الذي دفع ببعض النقاد في تلك الفترة إلى نعي مشروع الحداثة بمدارسه المختلفة، وأنه وصل إلى نهايته، وما علينا إلا الانتقال إلى مرحلة جديدة وفكر جديد؛ اصطلح على زمانه بمرحلة ما بعد الحداثة(٦). وما بعد الحداثة تقوم في الأساس على فرضية؛ وهي أنه ليس هناك حقيقة خارج الذهن، مشككة في أن يكون العقل قادرا على الحكم الموضوعي، وإنما يكمن دور العقل في بناء الحقيقة، ولا يكتشفها، فالحقيقة بنية ثقافية، تنبني بداخل الإنسان بفعل ثقافته ولغته(٧).

في هذا الجو استطاعت التفكيكية أن تحتوي النقد الجديد وتسيطر على مجالاته، وأصبحت مسارات القراءة المعاصرة تحت سياقات التفكيكية، وبلورت مفهوما في النطاق التاريخي يقوم على دمج الوعي الجديد في عملية توليد الدلالة والوصول إلى المعنى، بما يجعلها متغيرة ومتحولة باستمرار ومحاكية للواقع ومتماشية معه، طالما أن الوعي الجديد غير مستقر بسيرورة الحركة والزمن.

هكذا كان ميلاد التفكيك؛ وفقا لسياقه البيئي والتاريخي، وقد ظهر للنقاد معقولا ومقبولا وفقا للسياقين اللذين كان يغلب عليهما فكر العدم والنسبية.

- **فما حقيقة التفكيك؟**
- **وماهي سياقاته ومجالاته وأدواره ؟**
- **وما قيمته في بنية العقل الغربي ؟**
- **وهل يشكل اليوم المجال الأوسع في ساحة فكر الآخر الغربي ؟**

➢ هذا ما ستجيب عنه هذه الورقة في أربعة محاور بحول الله.

---

(٥) **إشكالية المنهج في العلوم الاجتماعية العربية المعاصرة**. عبيد الله العمري، و عبد القادر العرابي. كتاب الرياض ٩٩، ١٤٢٢.

(٦) أحمد مجدى حجازى، **النظرية الاجتماعية فى مرحلة ما بعد الحداثة**، قضايا فكرية، اكتوبر/١٩٩٩، مرجع سابق ، صـ٢٩٥

(٧) ينظر: **مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة**، محمد الشيخ و ياسر الطائري. ١٩٩٦ دار الطليعة بيروت،ص.٣٥.وكذلك **المناحي الجديدة للفكر الفلسفي**. سالم يفوت. دار الطليقة: بيروت،(١٩٩٩)، ص.٨٧.

المحور الأول: دلالة التفكيك

أولا: الدلالة اللغوية

يعني التفكيك في معاجم اللغة العربية؛ الانفصال والتشتُّت والخلاص والتجزئة والضعف والهوان والزوال. أما دلالة الترجمة فهي تختلف عنها شكلا وتلتقي مضمونا، من حيث إن الترجمة الحرفية للّفظ موجودة في الانجليزية دون الفرنسية، وهو ما يُدعِّم الرأي المتمثل في كون هذا اللفظ كمصطلح أطلقه النقاد الأمريكيون ولم يكن معروفا في المجال التداولي الفرنسي ولدى مؤسس التفكيك أو على الأقل لا يستعمله كدلالة على منهجه، لأن المصطلح المنتشر في الأوساط الفرنسية هو الاختلاف **(Difference)** وعرفت المدرسة باسم (فلاسفة الاختلاف).

في «المعجم الفلسفي بالألفاظ العربية والفرنسية والانكليزية واللاتينية» لجميل صليبا: (التفكيك **(dissociation)** عند علماء النفس هو انفصال العناصر الذهنية عن بعضها، فالعنصر المرتبط بأحد الأشياء مرة وبغيره أخرى يميل إلى الانفصال عن كل منهما حتى يصبح عنصرا مجرّدا كما في التجريد، فإن التجريد ناشئ عن تفكّك الصور الذهنية المترابطة، ويمكن تسمية ذلك بقانون التفكّك: **(Loi dissociation)**[٨]

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن من المعاني الأساسية للتفكيك في المعاجم العربية: الانفصال، فإن جزءًا هاما من الأساس المفاهيمي للتفكيك سوف يأخذ مشروعيته من اللغة.

ولننتقل إلى معنى آخر يتضّمنه التفكيك؛ وهو الاختلاف الذي يستخدمه (جاك دريدا) كثيرا، خاصة في المرحلة الأولى من عمر المدرسة، فإن الاختلاف في الفرنسية على حسب الاستعمال الأصلي **(Difference)** واستنادا إلى كشف الدلالة المعجمية لهذه الكلمة حسبما وردت في كتابات دريدا[٩]، يمكن اكتشاف عدة مفردات لها حقول دلالية تؤلف نسيج ذلك المصطلح، وهي جميعا أفعال ذات خواص زمانية ومكانية.

---

(٨) جميل صليبا، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢، ٣١٦/١.

(٩) انظر مثلا: **الكتابة والاختلاف**، ترجمة كاظم جهاد، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء،ط١، ١٩٨٨ ص٢٣ ،٦١، ومواقع:**حوارات مع جاك دريدا**، ترجمة وتقديم فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط١ ، ١٩٨٨، ص٢٧-٢٨.

وقد ذهب بعض المترجمين إلى تفضيل لفظ (التقويض) على (التفكيك) لعدة أسباب [١٠]، نذكر من هذه الأسباب: أن التقويض على نقصه لا يلتبس بمفهوم «ديكارت» وميكانيكية تفكيكه للمفاهيم[١١]، كما يتناسب مفهوم التقويض مع الاستعارة التي يستخدمها (دريدا) في وصفه الفكر الماورائي الغربي، إذ يصرّح بأنه معمار يجب تقويضه. والناظر بعمق في المسألة يجد أن رأي هؤلاء المترجمين ومن سار سيرهم ضعيف من وجهات عديدة، سواء من حيث دلالة الترجمة والاستخدام، أو تاريخ هذا المذهب، وحتى من وجهة مفهوم التفكيك، فقد اعتبروا أن مقولة التفكيك تنبني على هدم وبناء، وهو ما لا نجده عند دريدا وأتباعه، ولا في دلالته اللفظية، بل يدلّ على التشتيت والفصل والتجزئة ببطئ وإرجاء بما يرادف التواني في معاجم اللغة، وهو ما يصلح لعملية فكرية ضخمة كفكرة دريدا، فالزمان والمكان عنصران أساسيان في قاموس التفكيك، لأن إعاقة اللحظات الزمنية لتعطيل المعنى والعمل للوصول إلى الفراغ والفضاء، أي اللامعنى؛ من أبرز أهداف التفكيك.

فالهدم والتدمير والتحطيم والتقويض من الخواص النهائية للتفكيك أو المحصّلة التي يرمي إليها هذا المشروع للوصول إلى الحالة الموضوعية القصوى في أي قراءة أو بحث؛ وهي حالة لا نهائية المعنى، مما يجعل الواقع دائما حسبهم في ديناميكية معرفية مستمرة، ويتيسّر تقويض الميتافيزيقا الغربية التي تمثل حسب دريدا القوة المدمّرة للوعي البشري[١٢] .

ويلاحظ أن التفكيك لم يقم من فراغ، بل عبر جذور فلسفية عميقة، فإذا جمعنا ما تمّت ترجمته من العربية إلى الأجنبية ومن الأجنبية إلى العربية؛ فإنّنا نحصل على عدة معان أساسية في منظومة التفكيك سيكون لها الشأن الأكبر في شرح محتوى وبرنامج هذه المدرسة، وهذه المعاني هي: (الانفصال–التجزئة–المغايرة–الاختلاف–الإعاقة–التأجيل–التأخير–التشتيت–البعثرة–التفرّق–التواني–الانتشار–الانحلال) فإذا قارنّاها بين ما كنا حصلنا عليه من المعاجم العربية، فإن الصورة ستتضح كلية في الكشف عن حقيقة هذا اللفظ لغة، وسوف تتعدى الدلالة اللغوية إلى دلالة الاصطلاح، وكل هذه المفردات من ميزات فلسفة التفكيك، والتفاوت بينها في درجة الاستعمال على حسب البيئة والظرف والإنسان.

---

(١٠) انظر مثلا: **دليل الناقد الأدبي**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٢، ٢٠٠٠ ،ص٥٣.

(١١) ميكانيكية تفكيك المفاهيم: هذا المصطلح يحيل إلى انفساخ المفاهيم سببيا أو ميكانيكيا دون تدخل خارجي؛ وبذلك فهو تأييد لمذهب البنية الذي أصّله دي سوسير.

(١٢)انظر: دريدا، **في علم الكتابة**، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، المجلس الأعلى للثقافة ،القاهرة،٢٠٠٥، ص١٢، **وهوامش الفلسفة** marges de la philosophie.minuit . Paris.1972.p17.

ثانيا: الدلالة الاصطلاحية

عُرف التفكيك في مرحلة من تطوّره في الستينيات بالتحليلية البنيوية(١٣)، ولقد كان دريدا بنيويا خالصا، ومن أخلص تلاميذ ستروس، حيث اقترب كثيرا من تبنى فكرة وجود إشارات مجازية بين بُنى النصوص، وأن النص ليس بنية مستقلة ومجسّمة، بل تتحكم فيها الأنساق والمرجعيّات المختلفة التي تصنع الذات القارئة، إضافة إلى وجود بنية اختلافية كبرى داخل جسد النص(١٤).

فهو صيغة لنظرية النص والتحليل تقرأ قراءة مستمرة مفصّلة ومجزّأة تحلّل الأفكار الموروثة عن العلامة واللغة والنص والسياق ودور التاريخ وعملية التأويل والتفسير وأشكال التعبير والكتابة(١٥)، إن هذه الممارسة المتحوّلة إلى منهج صلُحت كنظرية في سياقها الغربي؛ لكونها باحثة عن البُنى الثابتة أو العوالم المنهجية التي تعكس القدرات البشرية ومحاولة قراءتها بطريقة لا نهائية عبر مرايا متجاورة، ومنه لجأ بعضهم إلى اعتبار التفكيك صيغة لنظرية النص(١٦).

ويعتقد الخبير الاجتماعي والفيلسوف «كريستوفر نورس» أن التفكيكية في جزء منها ردّ فعل إزاء نزعة البناء في الفكر البنيوي(١٧)؛ ممّا يعني أن أقوى مفاهيم التفكيكية يتلخّص في تحطيم مفهوم البناء «عند ليفي ستروس» والتي تخدم مهمة تجميد التلاعب بالمعاني في النص وتقليل ذلك في نطاق يمكن السيطرة عليه.

ويمكن عد التفكيكية تجربة تأويلية؛ لأن اللغة لها فسحة واسعة للتفسير والقراءة وفق قواعد مجازية تنتفي معها هواجس المطابقة أو البحث المستميت عن النّسب بين الشيء وصورته أو الدّال ومدلوله، لأن الأمر يتعلق فقط بمجال للحركة والتداول وحلبة للصراع والتقابل إلى أن تصبح ظاهريّا التأويلات غير عقلانية، أي غير برهانية وإنما فقط جمالية أو مجازية أو بلاغية، فاللغة تكون منبعا للدّلالات المتفجّرة وحقلا لإنتاج الاستعارات والمجازات ومختبرا لإثراء الخيالات وحيّزا هاما لممارسة أنواع الكتابات. وبذلك فالعملية التأويلية للتفكيكية سيرورة عدمية، وهي قبل كل شيء انتفاء التأسيس أو الأصل بعد أن كان التأويل –سابقا– نمطا للوجود وليس نمطا في المعرفة أو العدم.

العملية التأويلية للتفكيكية سيرورة عدمية، وهي قبل كل شيء انتفاء التأسيس أو الأصل بعد أن كان التأويل سابقا نمطا للوجود وليس نمطا في المعرفة أو العدم

(١٣) انظر: وليام راي ، **المعنى الأدبي من الظاهراتية إلى التفكيك**، ترجمة يوئيل عزيز، دار المأمون، بغداد،١٩٨٧، ص٥.

(١٤) انظر: جوناثان كولر، التفكيك، مجلة فصول، القاهرة، عدد٦٦، ربيع٢٠٠٥، ص٩٦-٩٧.

(١٥) عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدبة من البنيوية إلى التفكيك**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت،ط١، ١٩٩٨،ص٢٩١.

(١٦) انظر: المرجع السابق، ص٢٩١.

(١٧) انظر: كريستوفر نورس، **التفكيكية النظرية والتطبيق**، ترجمة رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار، اللاذقية، ١٩٩٢ ، ص ٧ .

المحور الثاني: الأسس المعرفية للتفكيك

رغم الطابع الهدمي والعدمي لمشروع التفكيك، إلا أن مؤسسيه شيدوا له أسسا معرفية أصبحت متداولة ومقبولة نوعا ما في الوسط العلمي اللغوي والفلسفي والتاريخي والاجتماعي. فقد كان إقامة مبدأ الاختلاف الذي هو عماد الفلسفة التفكيكية مستندا إلى مبدأي فهم (سوسير) للعلامة اللغوية: ـ الاعتباطية ـ والتفاضل. والمقصود **بالاعتباطية**؛ اعتباطية الإشارة ضمن ثنائي الوحدة اللغوية التي تتألف من عنصرين، وأن فكرة: (الأخت لا ترتبط بأية علاقة داخلية بتعاقب الأصوات (أ خ ت) التي تقوم بوظيفة الدال)[١٨]. ويمكن التعبير عن الفكرة الأخيرة باستخدام أي تعاقب صوتي آخر، وإنّ أمر اختيار الدّال ليس متروكا كليّا للمتكلم، ولا يرتبط بدافع، وليس له صلة طبيعية بالمدلول، وهو ما فهمه دريدا بكون العلاقة كيانا سلبيّا لا يمتلك أيَّ قيمة إيجابية بذاته؛ وهي المسألة التي اتخذها فرضيّة أولى انطلقت منها تعاليمه ورؤيته الجديدة التي طرحت على وفق سياق محدّد أهّلها لتكوين فلسفته في الاختلاف والتفكيك. أمّا **التفاضل**؛ فهو يعني انتفاء العلاقة الداخلية لتعاقب الأصوات بالفكرة، وانتفاء المناسبة التي تجعل من هذا الدّال المحدّد معبّرا عن هذه الفكرة المحدّدة؛ الأمر الذي يعني الإمكان الكامل لأن يكون أيُّ دال آخر معبّرا عن الفكرة نفسها التي عبّر عنها ذلك الدال الذي جرت العادة على التعرّف على الفكرة من خلاله؛ إذ ما من دال أفضل من غيره للتعبير عن هذه الفكرة أو سواها، الأمر الذي يعني أن الدال لا يحمل بداخله أيّ صفة ذاتية تسبّب اختياره هو بالذات لأن يكون ممثلا لهذه الفكرة ذاتها[١٩].

وهكذا انطلق دريدا من فكرة عدم تطابق العلامة مع غيرها، وهو هويتها الوحيدة التي ستتعرض لمقارنة الآخر بها، وهكذا ستسفر كل علامة عن نفسها بعد مقارنتها بآخرها: وبذلك ستتميّز كلّ من العلامتين عن الأخرى بالارتداد إلى ذاتها بعد التأكّد من عدم التطابق مع الآخر، والتأكّد أيضا أن الآخر شبيه بحالها تماما، لأنه يحمل الصفة الغريبة عن نفسه مثلما تحمل هي صفتها الوحيدة: (أي: عدم تطابقها مع غيرها)[٢٠] فقد شهدا معا الاختلاف الذي يدلّ على عدم امتلاكها أي قيمة ذاتية.

---

(١٨) علي مرزوق، **فلسفة البلاغة العربية**، طبعة كلية الدراسات الإسلامية، الأوزاعي، بيروت، دون تاريخ، ص٩٢، ودي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تعريب صالح القرمادي ومحمد الشاوش ومحمد عجينة، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ليبيا، ١٩٨٥، ص١١٢.

(١٩) انظر: ليفي ستروس، **الإناسة البنيانية**، ترجمة حسن قبيسي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٥، ص٤٤، وعادل عبدالله، **التفكيكية: إرادة الاختلاف وسلطة العقل**، ص٤٢.

(٢٠) دريدا، **الكتابة والاختلاف**، فصل (رسالة إلى صديق ياباني)، م س، ص٥٨.

وعلى كل حال، فإن الأساس الفلسفي واللغوي للاختلاف؛ أوجد حالة فكرية جديدة داخل الوسط الثقافي سرعان ما تبنّاها عدد معتبر من النخب في أوربا، وخاصة في ألمانيا(٢١) ثم فيما بعد بأمريكا بعد صدور الترجمات الإنجليزية(٢٢)، ولحدّ الآن لم يولد التفكيك كمصطلح علمي وفلسفي بعد، وقد ساهمت الترجمات الإنجليزية المذكورة ثم شروح الطلاب المتحمسين لدريدا في أمريكا، كدي مان وسابير ووف وغيرهم من جامعة «ييل»، وقد أعجب دريدا بهذا المصطلح وتبنّاه سريعا، كون الاختلاف لم يسع المبادئ الضخمة التي يحملها المشروع الدريدي، ولذلك ارتأى الباحث الأمريكي (بول دي مان)(٢٣) أن يكون مصطلح «التفكيك» الأليق لحمل منهج القراءة الجديد لعدة اعتبارات فنية واصطلاحية وعلمية، وقد تمّ بالفعل قبول هذه الفكرة بسرعة، وأصبح المتداول في الساحة الثقافية على نطاق واسع.

إن التفكيكية تدرس، قبل كل شيء، النصوصَ وتحاول قراءتها واستنطاقها أيّا كان قائلها، وأيّا كان منبعها، فالنص واحد من حيث إن:"بنيته لفظية وكلامية وإشارية"(٢٤) يمكن الغوص في أعماقه وخلخلته طبقا لفعاليته في الواقع ونجاعة منطوقه وتجاوبه مع المتغيّرات، فكونه يستنطق ويهزّ البنى الداخلية اعتبرناه قراءة فعّالة، وكونه يستمد منهجيته من الواقع المتغيّر وصلناه بالفلسفة، قال دريدا عن فعّالية ما بداخل النص وخارجه:"أعتقد أن ثمة بين خارج النص وداخله توزيعا آخر للمجال أو الحيّز، وأعتقد أنه سواء في القراءة الباطنة أو في القراءة التفسيرية للنص عبر مسيرة الكاتب أو تاريخ الحقبة يظل شيءٌ ناقص دائما"(٢٥)

التفكيكية تدرس قبل كل شيء النصوص وتحاول قراءتها واستنطاقها أيا كان قائلها، وأيا كان منبعها

---

(٢١) يفسّر ذلك بعلاقة دريدا القوية بفلسفة هيغل وهيدغر الألمانيين، وخدمته الرائعة لفلسفة الأخير.

(٢٢) انظر: نورس، **التفكيكية: النظرية والتطبيق**، ص١٠٠-١١٤، وماهر شفيق فريد، **ما التفكيك**، مجلة فصول (المصرية)، ربيع ٢٠٠٤، عدد٦٣، ص٣٣٢-٣٤٦.

(٢٣) انظر: عبدالعزيز حمودة، **المرايا المحدّبة**، ص٣١٢. ونورس، المرجع نفسه، وماهر فريد، المرجع نفسه.

(٢٤) انظر: محمد مفتاح، **المفاهيم معالم :نحو تأويل واقعي**، المركز الثقافي العربي، بيروت-الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٩، ص١٦-٢٦، فقد فصّل المؤلف في مرجعيته. وانظر: هيو سلفرمان، **نصيات بين الهيرمينوطيقا والتفكيكية**، ترجمة حسن ناظم وعلي حاكم صالح، المركز الثقافي العربي، الدارالبيضاء-بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص٥٦.

(٢٥) دريدا، **الكتابة والاختلاف**، ص٥١.

وتولّد عن فكرة الكتابة وإزاحة المعنى، والاشتغال بهما؛ فك الارتباط بالضرورة بين الكلمة والفكرة وإفساح المجال لتدخل القارئ في تحديد المعنى، وهو ما أدى بالضرورة إلى محاولة البحث عن الأنماط الممكنة المتعدّدة له التي يقدمها النص للقارئ من خلال عملية الاستنطاق، ومن شأن التعدّد والاختلاف في المعاني أن يمنح الخطابات قوة خاصة؛ لأنه يحرّرها من الاقتران بغرض معيّن، فتصبح اللغة مدارا لآفاق ذات دلالات كثيرة، وينفتح القارئ على رغبة اللغة، ويبدأ البحث عمّا هو مغيب فيها، ودون رغبة حقيقية للنص أو ما يسمّيه دريدا: (عشقا حقيقيا) لا يمكن أن تتوفّر أرضيّة مناسبة للقراءة؛ فلا بدّ من وجود رغبة ومشاركة بين القارئ والنص، وهي (اللذة) التي أراد التفكيك تحقيقها في اقتراحه قراءة متعدّدة الأوجه للنصوص الأدبية والروايات والخطابات البشرية(٢٦).

وهكذا انتقلت التفكيكية لتصبح صيغة لنظرية النص والتحليل تبحث عن العلامات والسياقات ودور المؤلف والقارئ والتاريخ وعملية التفسير وأشكال الكتابة النقدية، يقول الناقد نورس: "إن كتابات دريدا تبدو أكثر تجانسا مع النقد الأدبي منها إلى الفلسفة، وهي تستند إلى فرضية أن أساليب التحليل البلاغي المطبقة حتى الآن، وبشكل رئيس على النصوص الأدبية، لا غنى عنها لقراءة أي نوع من المعالجات"(٢٧).

إن كتابات دريدا تبدو أكثر تجانسا مع النقد الأدبي منها إلى الفلسفة

ووصل دريدا إلى نتيجة حاسمة؛ وهي رفض منح الفلسفة حالة الامتياز المنهجي التي تطالب بها دوما باعتبار أن لها القدح المعلّى المختزن للاستنتاجات، فقد واجه هذا الادّعاء بصرامة، وبيّن أن الفلاسفة قادرون على فرض طرقهم في التفكير انطلاقا من الأدب عبر قراءات نقدية تغلق وتهمل بمهارة عناصر المجاز وغيره من الأدوات الأدبية، وهو صراع صامت بين الأدب والفلسفة في أعمال دريدا بلغ مرحلته بعد قرون طويلة من الجدل، وبدت الفلسفة في أعمال المفككين انعكاسا لا نهائيا على دمارها الذاتي على يد الأدب، وأصبح في عصرهم (أي في السبعينات وبعدها) ممكنا جدّا ومؤكدًا أن النصوص الأدبية المعالجة أقل تضليلا من المعالجات الفلسفية، وتحديدا بسبب استغلالها لطبيعتها البلاغية، وهو تحوّل هام في تاريخ النقد والمناهج والأفكار في قيام نظرية معرفية في شتى المجالات تنطلق من المعالجات الأدبية(٢٨).

---

(٢٦) انظر: سلفرمان، **نصّيات**، ص١٩١، وعبدالله إبراهيم، التفكيك: الأصول والمقولات، ص٩٣.

(٢٧) نورس، **التفكيكية:النظرية والتطبيق**، ص٢٥.

(٢٨) لمراجعة هذه النقطة انظر: عبد العزيز حمودة، **الخروج من التيه :دراسة في سلطة النص** ، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط١، ٢٠٠١، ص١٥٧. وصلاح فضل، **بلاغة الخطاب والنص**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ١٩٩٢، ص٢٣٨-٢٣٩. وسلفرمان، **نصّيات بين الهيرمنيوطيقا والتفكيكية**، مرجع سابق، ص١١٢.

المحور الثالث: مجالات التفكيك:

كانت البدايات الأولى لمشروع التفكيك، عبر مبدأ الاختلاف؛ منصبّة على هدم كيان الميتافيزيقا الغربية والماورائية المطلقة، خصوصا في أستاذها الأكبر «هيغل»، وقد ساعد النجاح الذي حصّله دريدا في هذا المجال إلى إعادة قراءة الفكر البشري القديم والحديث، منذ سقراط وأفلاطون وأرسطو، وصولا إلى هيغل وماركس وهيدغر وغيرهم، وأصبح من الممكن جدا في المنهجية التفكيكية فتح جميع المغلقات ومناقشة الثبوتيات وتخطّي التقاليد بل وتحطيمها طبقا لمفهوم النص الجديد، فجميع نصوص المفكرين السابقين قالت أشياء وسكتت عن أشياء، ومهمة دريدا وأتباعه إبراز المسكوت عنه فيها، فإذا كانت كل الكتب تقول الحقيقة حتى ولو أدّى ذلك إلى تناقضها، فإنّ كلّ كلمة فيها هي في الأصل إيحاء أو مجاز، إنها تقول شيئا آخر غير ما يبدو في الظاهر، إن كل كلمة تشتمل على إرسالية لا يستطيع الفرد وحده أن يكشف عنها، لأن المعرفة السرية معرفة عميقة، ذلك لأن ما يوجد تحت السطح هو وحده الذي قد يظل مجهولا لفترة طويلة، وعليه؛ فإنّ الحقيقة هي ما لم يُقل، أو هي ما قيل بطريقة غامضة، ويجب أن نفهم ما هو أبعد من ظاهر النص، ولا شك أن في ذلك إقامة لكيان الفلسفة والفكر على قواعد الأدب.

أولا: الدين:

لقد انطلق التفكيك في ساحة الفكر والأدب يقوّض كل ما يمتّ بصلة إلى الميتافيزيقا، ويفتت كل الثوابت والمطلقات، وأخذ ينظر إلى العالم نظرة يحكمها الشك بما يشبه المنهج الهوسي[٢٩] والسفسطائي، لقد ردّ الديانات إلى مجموعة نصوص وثنائيات متجاورة؛ تحكمها أحداث وسياقات تاريخية جد متداخلة، كاليونانية/الإسلام، اليهودية/اليونانية، المسيحية/الإسلام، اليهودية/المسيحية، اليهودية/الإسلام، والعكس صحيح، ويختلط فيها الاجتماعي بالسياسي ليشكّلا معا ناموسا مقدّسا تحتكره مجموعة من المتغلّبة، لذلك لا بد من عملية تفكيك للسياقات التاريخية وإحالتها إلى نصوص عادية بين حدّين متقابلين يتمّ فيهما التجاوز بصورة آلية؛ لنفهم حقيقة الدين في وقت تشكّله، ثم في مراحله المختلفة.

انطلق التفكيك في ساحة الفكر والأدب يقوّض كل ما يمتّ بصلة إلى الميتافيزيقا، ويفتت كل الثوابت والمطلقات،

وقد تولّد عن التفكيك التاريخي؛ منهج ما بعد حداثي يسمّى بالتاريخانية، يمّت بصلة مباشرة إليه ويدين له بالولاء المطلق، وإن كان فيورباخ الألماني أول من أراد حسم هذه المسألة في بلورة رؤية منفصلة عن الأيديولوجيا والتقديس ومرتبطة بالواقع والسياق.

لقد شكلت الديانات بفروعها مادة خصبة لمدى فعّالية المنهجية التفكيكية، فبعد النجاحات الباهرة على مستوى الأدب والفكر والاجتماع، جاء دور النصوص المقدّسة لتنال حصتها من الهدم وتشتيت المعاني وتجاوز الأصول، وقد قام جاك دريدا بقراءة مفتوحة لكتاب «المدراش»، وهو موسوعة لتفاسير العهد القديم، جمعها المحقق اليهودي يورشالمي في ٢٠٠٠ مجلد.

تولّد عن التفكيك التاريخي منهج ما بعد حداثي يسمّى بالتاريخانية يمّت بصلة مباشرة إليه ويدين له بالولاء المطلق

---

(٢٩) **المنهج الهوسي**: أو الشكي؛ من الشك: وهو التردّد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك، ثم إذا أضيف إلى المذهب؛ فإنه يشير إلى قول من التزموا الشك منهجا وحالة مستقرة؛ فيتردّدون دائما بين الإثبات والنفي، ويتوقفون عن الحكم ارتيابا بحجج من أهمها: الأخطاء التي يقع فيها الناس كأخطاء الحواس و الوجدان في اليقظة والمنام، وأخطاء الذاكرة وأخطاء الاستدلال، وامتناع البرهان التام. (مراد وهبة، **المعجم الفلسفي**، دار الثقافة الجديدة، القاهرة، ط٣ ، ١٩٧٩، ص٢٣٢-٢٣٣).

ثانيا: اللغة والأدب

يعتقد الناقد الأمريكي "جيفري هارتمان" أن فصل الفلسفة عن الدراسة الأدبية لم يُفد أيًا منهما، فمن دون ضغط الفلسفة على النصوص، أو الضغط المتبادل للتحليل الأدبي على الكتابة الفلسفية يُصابُ كلٌّ منهما بالجدب، وإذا كان هناك خطر تداخل المجالات فإنه يعتبره خطراً يستحق أن نجرّبه(٣٠). وقد طبق النقاد في العالم هذا الضغط على النص؛ بغية إثارة دلالات جديدة، فاستعملوا جماليات الألفاظ ومبدأ الأثر والإرجاء وتذويب الدوال في الكليات الواحدة المتلاشية، والكفاءات التعبيرية التي لم تستغل.

فيجب ألاّ يظل القارئ حرّاً خارج النص، بل لابد أن يمارس حريته داخله؛ أي: أن يكون له دور في إنتاج المعنى؛ وهذا هو الشرط الفعال في علم جماليات التلقي، وبالمشاركة في صنع المعنى يتحوّل التركيز من موضوع النص إلى سلوك ومنهج القراء، فلا تكون مرجعية العمل القرائي إلي الموضوع أو إلى ذاتية القارئ، بل إلى الالتحام بينه وبين إشارات النص(٣١)، وتتم العملية عبر مستويين متلاحقين؛ وهما: التأويل والاستنطاق.

وبذلك تتحقق قراءة عميقة جدًا للنص؛ بإدخال عقل القارئ لإثارة الأسئلة وفك المزيد من العلامات وإثارتها وتوضيح المسكوت عنه ومحاولة الإجابة عنه. ويسمي البعض(٣٢) هذه العملية في مستواها الثاني بالاستذهان؛ وهو: عمل الذهن والخيال في المهمة التي تتشكّل فيها ذاتية القارئ ويكشتف عالما داخليًا لم يكتشفه هو في المستوى الأول.

وقد وصل "دريدا" إلى نتيجة حاسمة؛ وهي رفض منح الفلسفة حالة الامتياز المنهجي التي تطالب بها دوما باعتبار أن لها القدح المعلّى المختزن للاستنتاجات، فقد واجه هذا الادّعاء بصرامة، وبيّن أن الفلاسفة قادرون على فرض طرقهم في التفكير انطلاقا من الأدب عبر قراءات نقدية تغلق وتهمل بمهارة عناصر المجاز وغيره من الأدوات الأدبية، وهو صراع صامت بين الأدب والفلسفة في أعمال "دريدا" بلغ مرحلته بعد قرون طويلة من الجدل، وبدت الفلسفة في أعمال المفككين انعكاسا لا نهائيا على دمارها الذاتي على يد الأدب، وأصبح في عصرهم (أي في السبعينات وبعدها) ممكنا جدّا ومؤكدًا أن النصوص الأدبية المعالجة أقل تضليلا من المعالجات الفلسفية، وتحديدا بسبب استغلالها لطبيعتها البلاغية، وهو تحوّل هام في تاريخ النقد والمناهج والأفكار في قيام نظرية معرفية في شتى المجالات تنطلق من المعالجات الأدبية(٣٣) .

---

(٣٠) انظر: كريستوفر نورس، **التفكيكية:النظرية والتطبيق**، ص٢٥.

(٣١) انظر: محمود عباس عبد الواحد، **قراءة النص وجماليات التلقي بين المذاهب الغربية الحديثة وتراثنا النقدي:دراسة مقارنة**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٢٢. بتصرف.

(٣٢) محمود عباس عبدالواحد، المرجع نفسه، ص ٢٢ . ٢٣ .

(٣٣) لمراجعة هذه النقطة انظر: عبد العزيز حمودة، **الخروج من التيه: دراسة في سلطة النص**، سلسلة عالم المعرفة،ا لمجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، ط١، ٢٠٠١، ص١٥٧، وصلاح فضل، **بلاغة الخطاب والنص**، مرجع سابق.

ثالثا: فلسفة التاريخ

تأثّر "دريدا" وأتباعه تأثّرا لا يُنكر بتعاليم "هيغل"، وإن تمردوا عليه فيما بعد، إلاّ أن شوائب الجدل لا تزال عالقة في كثير من مفاهيم التفكيك، كالأثر وجدلية المعنى، ومفهوم الهوية، والامحّاء أو النفي، والصيرورة، والوجود، والأصل... وغيرها. وتوضيح ذلك أن الأثر عند "هيغل": هو حركة الاحتفاظ والإنهاء معًا عبر عملية التجاوز؛ أي: إنها حركة الأثر نفسها، فهيغل في الكتاب الأول من المنطق يعتبر أن التجاوز؛ تحديد جوهري يحدث في كل مكان، وكل ما يتم تجاوزه هو على النقيض، حدّ عليه التوسط، إنه (لا وجود) ولكن بمقدار ما يكون ذلك نتيجة ناجمة عن وجود، فهو ما يزال يحتفظ داخله بالتحديد الذي نشأ عنه، فبكلمة التجاوز **(AUTHEBEN)** معنيان: إنها تعني الاحتفاظ وتعني الإنهاء[٣٤].

كما أخذ "دريدا" عن "هيغل" مفهوم المحو والإمحاء في ركن الجدل الأساسي، وهو النفي، غير أنه استعمله في مجال لغوي قصد التحايل على نصوص هيغل نفسها: "فقد سهر جاك دريدا الليل كله مع فلسفة هيغل"[٣٥] مستنطقا نصوصها ومؤوّلا عبر سياسته المفتوحة. وقد تم من قبل استعمال النفي الهيغلي في نطاق مادي واقعي كحالة كينونة مجسّدة، بينما حاول دريدا بذكاء الإفادة منها بتحايل واضح من أجل الوصول إلى هدم المفهوم الهيغلي وأساس الميتافيزيقا الغربية؛ من حيث كونهما حقائق.

وإن كان يبدو على المستوى النظري؛ أن دريدا قد استفاد من هيغل، فإن الفلسفة التطبيقية لمعظم التفكيكيين خاصة الأوربيين منهم، تتجلى فيها النزعة الماركسية الواضحة من حيث إيمانهم الشديد بالواقع وتغيّره وصراع الطبقات، خاصة وأن أكثر هم يسلمون[٣٦] بالتقسيم الماركسي للواقع إلى بنية تحتية وبنية فوقية: **البنية التحتية؛** تتمثل في القوى الاقتصادية والاجتماعية والعلاقات المتغيرة باستمرار بينها، من صراع طبقي مستمر بين قوى مسيطرة (رأس المال)، وقوى مغلوبة مقهورة (الطبقة العاملة)، و**البنية الفوقية؛** تتمثل في الأيديولوجيا والدين والسياسة والثقافة والقانون، فإن مكوّنات هذه البنية لا تنشأ من فراغ ولا يمكن دراستها بمعزل

> الفلسفة التطبيقية لمعظم التفكيكيين خاصة الأوربيين منهم، تتجلى فيها النزعة الماركسية الواضحة

(٣٤) هيغل، **محاضرات في الفلسفة**، ترجمة خليل أحمد خليل، طبعة «مجد» المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢، ص١١٠.

(٣٥) عادل عبدالله، **التفكيكية: إرادة الاختلاف وسلطة العقل** ، دار الحصاد، دمشق،٢٠٠٠، ص١٠٠.

(٣٦) انظر: سيدني هوك، **التراث الغامض:ماركس والماركسيون**، ترجمة كامل زهران، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ،١٩٨٦، ص٢٣٤، وعبدالعزيز حمودة، **المرايا المحدّبة**، مرجع سابق، ص١٩١.

عن البنية التحتية التي تحدّدها وتحكم حركتها، ودريدا نشأ ماركسيّا[٣٧]، وتعاليم مدرسته تحكمها نظريّا هذه الرؤية الماركسية من حيث تغيّر المعنى باستمرار، وتدخّل الأنساق والقراءات في تفسير وتأويل النصوص وتوجيه القوى، وكذلك في تحطيم المطلقات والأصول، والإيمان بالفراغ، فإن حقيقة كل ذلك الرجوع إلى الوعي المادي والواقعي في صناعة حياة البشر، وإن كان دريدا حاول التملّص من الماركسية في أواخر حياته في كتابه:«أطياف ماركس»، حيث أكد أن تدميره لفلسفة المعلّم[٣٨] وتوابعها (كفلسفة ماركس)، لا يعني تزكية للفلسفة البراغماتية والرأسمالية، بل هو نقد متعالي لكل حضور تسلطي يريد احتكار الحقيقة وممارسة الضغط الأيديولوجي من منطلق ميتافيزيقي.

➤ رابعا: الانثروبولوجيا والاجتماع

نقل مؤسسو التفكيك النظريةَ من قلب الأدب إلى فلسفة الذات الإنسانية عن طريق البنيوية، من خلال محاولتها التوليف بين النموذج الألسني والفلسفة الإنسانية، ثم تفسير العقل والمجتمع طبقا للبُنى الألسنية، وهي نقطة مهمة جدا استفاد منها دريدا ونقّاد ما بعد الحداثة[٣٩].

فقد كان اهتمام التفكيك بدراسة المجتمعات وأنماطها عبر نقده المركزية الأوربية؛ نابع من انثروبولوجية ليفي ستروس في دراسته العميقة لمجتمعات مُغرقة في البدائية وأساطيرها، كعمله الشهير:«النيّئ والمطبوخ»، فقد كان دريدا في غاية السرور من هذا العمل لغيّاب أية أسطورة مرجعية ذات امتياز، وبذلك إمكانية التحليل الاجتماعي من أي مكان نظرا لغياب أي «مركز»، والتخلص من الحضور الميتافيزيقي واللوغوس الغربي، وهو مبدأ مؤسس يؤخذ كمسلّمة في فلسفة التفكيك، وذو جذر بنيوي واضح[٤٠]، كما أن هذا العمل البنيوي في تحليل الأسطورة يستخدم تصنيفات معدة مسبّقا، ثم تعدّل هذه التصنيفات، ويشبه هذا المنهج ما اصطلح عليه دريدا بعمل «المحَرْتق» **(Bricoleur)**، وهو الذي يصنع أشياءه ممّا تيسّر له من قطع قديمة تبقّت من عمل آخر، ويشير بذلك إلى أن جميع مفاهيمنا متبقية من عمل آخر، ونبدأ جميعا بمفاهيم (تصنيفات) جاهزة، أنتجت في الأصل أغراضاً أخرى وتقوم بتعديلها لتوافق ما نفعله الآن: (أي: ما يفعله التفكيك في إعادة الإنتاج المستمر عبر جدلية اللفظ والمعنى وفراغ البُنى) [٤١].

---

(٣٧) انظر: محمد الشيخ، **المثقف والسلطة**، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٩١، ص٨٤-٩٠.

(٣٨) يقصد فلسفة هيغل؛ باعتباره سيد ميتافيزيقا الغرب.

(٣٩) انظر: هاريسون، **البنيوية في طورها الفرنسي**، مجلة الآداب الأجنبية (دمشق)، عدد ١٠٦-١٠٧، ص١٣.

(٤٠) انظر: هاريسون، المرجع نفسه، ص٢٧.

(٤١) انظر: سلفرمان، **نصيات**، مرجع سابق، ص٣٨-٤٦.

كما أن تذبذب البنيوية في تحديد معنى للنص على ضوء تغيّر البُنى؛ ارتبط بتذبذب الفكر الفلسفي من قبْل، بين الوهم والحقيقة واليقين والشك، وجاءت تفسيرات البنيوية لمعنى النص في محاولة ضبط هذا التذبذب والوصول إلى حالة قارة ومرجعية يفرّق خلالها بين هذه المفاهيم، وقد استغلت التفكيكية جهود البنيوية في ضبط معنى للنص، هل هو خارج أو داخل النص؟ في ترجيح النظرة الخارجية النسقية لإقرار التذبذب الفلسفي من جهة، ولتغليب جانب الوهم والعدم من جهة أخرى، فهو رقص على الأجناب، ولكنه في الإطار البنيوي لاستخدام مقدماتهم وتعبيراتهم(٤٢).

وقد حطم دريدا بذلك نموذج التأويلية القديمة وحتى الحديثة الذي كان قائماً على معنى أصل، يتم على ضوئه وعلاماته البحث عن معاني ثانية لاحقة، قد ينتقل واحد منها إلى مرتبة الأصلية، ونقله دريدا إلى التداولية المستمرة؛ بغية استكشاف البعد التأملي بحيث يخلق من النص الأول نصاً ثانياً يتشظى في نص آخر(٤٣). ويتحقق فقط في عالم السكون، وهو عالم الكتابة، ويصبح المعنى والمدلول أسير ذات القارئ المتغيرة بتكرر القراءة، اعتماداً على مسلمة؛ أن الذات القارئة متقولبة بالأنساق العامة السائدة في المجتمع.

ويدّعي دريدا أن منظومة القراءة هذه تمارس استشرافاً لآفاق أبعد وأرحب وأكثر مصداقية من الحقيقة الأولى المزيفة؛ فكل معنى يسكنه معنى متشظي، وكل وعي يسكنه لا وعي، وإذا أردنا فكر الثبات والأصل قتلنا الحقيقة في خطواتها الأولى، بأن سجنا المدلول في الدال لأول لغة وإشارة، وذلك كبير على الحقيقة النسبية(٤٤). وهذا بالضبط ما سبق للفكر الهرمسي أن شغل به العالم القديم حين أكد أن اللغة بقدر ما تكون غامضة ومتعددة بقدر ما تكون غنية بالرموز والاستعارات؛ انطلاقاً من فكرة كانت رائجة عن الأفلاطونية الجديدة أننا لا نستطيع معرفة الله من خلال حدود مألوفة؛ فولدت الهرمسية فكراً جديداً يقول بأن التشابه والتداخل الكوني وليد انبعاث إله في الكون، إلا أن أصل هذا الانبعاث هو الواحد غير القابل للمعرفة، ويعد هذا الواحد بؤرة التناقضات في ذاتها، واللغة بغموضها تكون قادرة على تعيين الله الذي يحتضن هذه التناقضات في المكان والزمان الذي تريد وفي الهيئة التي تريد. والخلاصة؛ أن ما يشكل احتفاء به بتطابق التناقضات هو نفسه ما يؤدي إلى انهيار مبدأ الهوية؛ وهي ممارسة مثالية افتراضية رمزية وصلت إليها الهرمسية، وتبعتها التفكيكية(٤٥).

---

(٤٢) انظر: عبد العزيز حمودة، **المرايا المحدّبة**، مرجع سابق، ص٩٦.

(٤٣) انظر: عقاب بلخير، **السيمياء والمناهج الأخرى، كتابات معاصرة**، بيروت، عدد ٤٠، ص ١٠٤.

(٤٤) انظر: دريدا، **الكتابة والاختلاف**، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٤٥) انظر: أمبرتو إيكو، **التأويل بين السيميائيات والتفكيكية**، ترجمة وتقديم سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء–بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص ٣٣.

وإذا كان هذا هو الحال في لعبة الدوال والكلمات، في أن لها أصلاً هرمسياً؛ فإن إمكانية نقضها تكون في متناول أي مستكشف لتاريخ هذا المتن، فالمعرفة الهرمسية حافظت على وجودها طيلة القرون التي حاولت فيها العقلانية المسيحية إثبات وجود الله، عبر نماذج برهانية مستوحاة من مفهوم الحد المطروح **(medus ponens)**، واشتهرت على شكل ظاهرة هامشية في أعمال بعض الطوائف اليهودية[٤٦]، وفي أحضان ما تبقى من الأفلاطونية الجديدة في القرون الوسطى[٤٧].

وعند ذكرنا للقبالاه؛ لابد من التذكير أن الكثير من تعاليم التفكيكية في نفي المعنى وفصل الدوال يلتقي مع التعاليم والمفاهيم القبالية؛ التي تعبر عن التراث الصوفي الحلولي اليهودي، الذي يوحد بين الخالق والمخلوق، فتختفي المسافة بينهما، ويلتحمان ويكونان جوهراً واحداً؛ بحيث لا يكون للواحد أي وجود دون الآخر، وهي حالة وحدة الوجود[٤٨]. وإذا أخذنا كما يذكر عبد الوهاب المسيري مثلاً «مفهوم الاختلاف»؛ فإننا نجده مفهوماً أساسياً في اليهودية، فالإله في هذه الديانة ليس بشراً ولكنه ذو سمات بشرية، وهو مطلق يتجاوز الطبيعة والتاريخ، ولكنه نسبي لأنه مقصور على اليهود، دائم التدخل في الطبيعة والتاريخ، بل ويحل في الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي[٤٩]. ويضيف المسيري إمعاناً في تبيان العلاقة مع القبالاه وموافقة للكاتب الإيطالي إيكو الذي يثبتها بعرض متسلسل شيق؛ بأنه في التراث القبالي: (الله هو الأين سوف ـ الذي لا مثيل له) ولكنه أيضاً: (الأين ـ اللاشيء): والكلمتان عندهم: مكوَّنتان من الحروف والأصوات نفسها تقريباً؛ وخلاصة جمْعها أن الإله: (لا هو هذا ولا ذاك، ولا هو بالغياب ولا هو بالحضور، أو هو الغياب والحضور في الوقت نفسه)[٥٠].

الكثير من تعاليم التفكيكية في نفي المعنى وفصل الدوال يلتقي مع التعاليم والمفاهيم القبالية؛ التي تعبر عن التراث الصوفي الحلولي اليهودي

---

(٤٦) خاصة في أعمال الخمياويين والقباليين.

(٤٧) انظر: إيكو، المرجع السابق، ص ٣٥.

(٤٨) انظر: المسيري، **الحداثة وما بعد الحداثة** ؛ بالاشتراك مع فتحي التريكي، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤٢٤ هـ -٢٠٠٣، ص ١٣١.

(٤٩) انظر: المرجع نفسه، ص ١٣٢.

(٥٠) المرجع نفسه.

المحور الرابع: توسع التفكيكية

لقد تصدّى لمشروع التفكيك ثلة من المفكّرين جمعهم الإحباط وعدم الثقة في المطلقات، والحقائق والإيمان بالغياب واللاحدود؛ كمبدأ مرجعي للحدّ من هيمنة وتسلّطية الفكر الماورائي الغيبي، وتوزّعت هذه الجهود بين أمريكا وأوربا، فرنسا بالخصوص، خاصة بعد اندثار حلقة براغ الشكلانية(٥١)، والتي تأسّست على خلفية الصراع بين التيار الماركسي والنقّاد الجدد من البنيويين(٥٢)؛ وهو وضع شبيه لمأساة ذلك الرّجل الذي قيّض له أفلاطون في «جمهوريته» الخروج من الكهف، فتمّت له رؤية الأشياء على حقيقتها تحت نور الشمس، ثمّ بعد عودته إلى الكهف بدأ الحديث إلى أولئك الذين لم يزالوا مقيدّين بالسلاسل والوهم والظّلال، عن ذلك العالم الحقيقي للأشياء، العالم البديل لعالم الظّلال، وهو أمر لا سبيل إلى إيصاله لهم لانتفاء تصوّر مثل هذا العالم أوّلاً، ولأنّ العالم الحقيقي الوحيد لديهم هو عالمهم ذاك، عالم الظلمات، المسكن الذي يقيمون فيه منذ الطفولة مقيّدين بالسلاسل كما يرد في المحاورة(٥٣).

إلاّ أنّ النقاد الجدد تجاوزوا محاورة أفلاطون، فلم يستكينوا للإقناع الخطابي والوصف فقط، بل عمدوا إلى هدم وتدمير ذلك الكهف والمسكن، وأخرجوا هؤلاء الناس إلى عالم ما بعد الحداثة والذي يعتبرونه حالة النور الذي لا ينقطع ويتجدد باستمرار، ثمّ جرّوهم إلى عالم البراري والكون المفتوح، حيث لا ظلمة ولا استقرار، بل صفحات بيضاء واسعة وتيه وفراغ غير محدود، تستوي فيه جميع المبادئ والمعالم والقيم وتُقرأ طبقا لمرايا متجاورة ومتعاقبة.

وقد انطلقت مدرسة التفكيك مع الفيلسوف دريدا؛ ويعد «جاك دريدا» من أبرز تلاميذ «ليفي ستروس» ومن أنجب من خرّجتهم المدرسة الفلسفية الفرنسية في الخمسينيات. ولد في الجزائر بمنطقة الأبيار بالعاصمة سنة ١٩٣٠ من عائلة يهودية فرنسية، هاجر إلى فرنسا لإتمام دراسته وأداء الخدمة العسكرية، والتحق بعدها بمدرسة المعلّمين العليا حيث تتلمذ على «جان ايبوليت» أحد كبار الأساتذة المتخصصين في فلسفة هيغل، وسيعنى التلميذ بعد ذلك أيّما عناية بتدمير فلسفة هيغل، باعتبارها القوة المخرّبة للوعي، ومع أنه أمضى سنة في جامعة هارفارد، وقام بالتدريس في جامعة السوربون بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٤ فإنّه ارتبط اسمه بمدرسة المعلمين العليا.

---

(٥١) **حلقة براغ الشكلانية**: هي حلقة تشكلت من مجموعة من الباحثين واللغويين؛ أمثال جاكوبسون الذي هجر روسيا بعد أن زالت الشكلانية هناك بضغط الظروف السياسية، ثم التحق بحلقة براغ مقدَّما خلاصة لما توصل إليه هو وأقطاب المدرسة الشكلية، وكان بنفست ومارتنيه الفرنسيين وجونز الانكليزي ويوهلر الألماني وأعلام هذه المدرسة كمكاروفسكي وهارتفك ...وغيرهما، وقد توصلوا إلى أنماط جديدة في دراسة اللغة.(محمد عناني، **المصطلحات الأدبية الحديثة**، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ١٩٩٦، ص٧٨).

(٥٢) انظر: عبدالله إبراهيم، **التفكيك:الأصول والمقولات**، مرجع سابق، ص١٠-١٨.

(٥٣) بروتاجراس، **محاورة أفلاطون**، ترجمة ودراسة محمد كمال الدين علي يوسف، دار الكاتب العربي، القاهرة،١٣٨٧هـ-١٩٦٧، ص٥٥.

كان إلى جانب «جاك لاكان» و«ميشيل فوكو» «ورولان بارت» الحلقة الضيّقة في الهرم البنيوي، ويقف «دريدا» كحالة فريدة متميّزة، فقد حقّق شهرته الواسعة في سنوات قليلة وبأعمال معظمها مقالات ومقابلات صحفية تدور في الأغلب حول كتابات وآراء غيره من المفكّرين والفلاسفة والأدباء، لكنّها تتّصف بدرجة عالية من التفكير العميق والنقد الموضوعي(٥٤).

وقد كان للظروف التي مرّت بها فرنسا في أواخر الستينيات؛ دخل كبير في نجومية اسم «دريدا» واكتسابه لتلك الشهرة، فحين قامت ثورة الطلاب عام ١٩٦٨ (٥٥)، وانضمّ إليها كثير من الكّتاب والمفكرين والمثقفين الفرنسيين؛ رفض (لوي ألتوسير) و(كلودليفي ستروس) وهما من كبار قادة الفكر البنائي، الانضمام إلى الحركة والنزول إلى الشارع، ممّا أثار سخط أوساط كثيرة من النخب، حيث رأوا في هذا الموقف تخاذلا وعلامة على تراجع دور البنائية ومفكّريها في صناعة الحياة الثقافية والسياسية في البلاد، فالتف الشباب الجامعي حول اسم جديد ولج إلى الأحداث بحماسة كبيرة وفكر ثاقب وعقلية ذكية، حيث قدّم آراء نقدية صارمة تجاه البنائية التقليدية، ودعا إلى تجديد معالمها وأسسها ومقولاتها؛ ممّا جعله رمزا لاتجاه فكري جديد عرف بـ (ما بعد البنائية)، ولقّب أتباعه بفلاسفة الاختلاف نسبة إلى المبدأ الأول الذي جعله دريدا محور فلسفته في كتابه « الكتابة والاختلاف » الصادر عام ١٩٦٧ حيث عمل على تجاوز بنيوية ستروس وتخطّيها.

والحقيقة إن بروز «دريدا» كان قبل ذلك بسنوات، وليس للسّياسة علاقة بذلك، فقد شدّ إليه الأنظار عام (١٩٦٢)؛ حين نشر ترجمة لدراسة الفيلسوف الألماني « هوسرل» عن «أصل الهندسة» قدّم لها بمقدمة طويلة تجاوزت المائة وخمسين صفحة، وحاز الكتاب على جائزة «كافاييه»، حيث رسمت هذه المقدّمة المعالم الرئيسة لخط تفكير «دريدا» مستقبلا في كل كتاباته، وقد كان « هوسرل» قد تعرّض في دراسته لمشكلة العلاقة بين الموضوعية المقالية للهندسة؛ من حيث إن قوانين الهندسة لا تعتمد على أيّ أحداث أو وقائع تاريخية أو تجريبية، ووجودها التاريخي التجريبي؛ من حيث إن أفرادا معيّنين بالذات هم الذين يضعون القواعد والبراهين الهندسية؛ ذاهباً إلى أن الكتابة ضمن دائرة اللغة بكلّ ما تتّصف به من تجريد وابتعاد عن الشخصانية والإطلاق؛ هي التي تحقّق تحوُّل الهندسة من فكرة في ذهن عالم الهندسة إلى موضوع مثالي(٥٦).

---

(٥٤) انظر: نورس، **التفكيكية: النظرية والتطبيق** ، ص٢٥، وسلفرمان، **نصيات**، ص٣٣٨- ٣٤١.

(٥٥) أحداث ١٩٦٨ في فرنسا: هي المظاهرات الطلابية التي أطاحت بالجنرال ديغول؛ بدأت في ٢٦ أفريل في جامعة نانتيير. انظر في تفاصيل المظاهرات: محمد الشيخ، **المثقف والسلطة**، مرجع سابق، ص٥٧و٧٥.

(٥٦) انظر:دريدا، **في علم الكتابة**، ترجمة أنور مغيث ومنى طلبة، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٦٦.

وبذلك كان التحليل «الفينومنولوجي»[٥٧] لهوسرل عبر هذه الدراسة؛ نقطة الارتكاز الأساسية في مسيرة تقويض بناء الفلسفة الغربية، والذي عمل على إكماله «دريدا» وقد كرّس له كل وقته، فأخرج دفعة واحدة سنة (١٩٦٧) ثلاثة كتب مهمة في هذا المجال، وُلدت معها فلسفة الاختلاف ونشرتها أمواج السيّاسة عبر أحداث الطلاب سنة ١٩٦٨، ويمكن عد كتابين من هذه الثلاثة الجسر الذي مهّد لانتشار وذيوع فلسفة التفكيك:

ألف دريدا ثلاثة كتب مهمة سنة ١٩٦٨، ويمكن عد كتابين من هذه الثلاثة الجسر الذي مهّد لانتشار وذيوع فلسفة التفكيك

- كتاب «**الكلام والظاهرة**» حيث قام بنقد نظرية هوسرل حول «العلامات»، وأسّس لسيميولوجيا جديدة تقوم على ثلاثية الأبعاد، وانتقد خاصة فكرتي الصوت والحضور[٥٨] في فلسفته اللسانية التحليلية، وهو من الكتب النادرة في إنتاج دريدا الكبير، والذي يعالج فيه موضوعا محوريّا واحدا، لأنه يأخذ في كتبه الأخرى باستراتيجية اللعب المفتوح؛ والتي تعدّ من أساسيات التفكيك.

- أمّا الكتاب الثاني: وهو عبارة عن مجموعة مقالات أكاديمية وانطباعية جمعها تحت عنوان تأسيسي، كان له شأن كبير وهو: «**الكتابة والاختلاف**» حيث أبرز فيه معالم الاختلاف الكائنة في أعمال الكثير من الكتّاب والأدباء عبر دراسة عميقة لنصوصهم، وتتردّد في صفحات الكتاب أسماء: «جون روسيه» في مجال النقد الأدبي البنائي، و«ميشيل فوكو» و«إدمون جابيه» و«ليفي ستروس» و«جورج باتاي» و«فرويد» و«هوسرل».

---

(٥٧) **التحليل الفينومنولوجي**: نسبة إلى الظاهراتية التي أسَّسها «إدموند هوسرل»؛ بحيث تتخذ فلسفته نقطة انطلاقها من صورة العالم في وعي الإنسان؛ ومن ثم فهي تنفي إمكانية النظر إليه باعتباره كيانا مستقلا عن الوعي البشري، وتسعى للوصول إلى الواقع المجسّد من خلال خبرتنا به. (انظر: محمد عناني، **المصطلحات الأدبية الحديثة**، مرجع سابق، ص٧٠-٧١).

(٥٨) **فكرة الصوت والحضور**: معناها أن الميتافيزيقا الغربية كانت تركّز على الصوت المعبّر عن اللغة، والعقل؛ مما يؤدي إلى التمركز والحضور.

لقد كانت الفلسفة من «أفلاطون» إلى «هيغل» فلسفةَ حضور؛ أي إن الوعي لا يعترف إلاّ بما يحضر لديه فيتخذ شكل الدّلالة والمعنى والقانون والهوية، فيتطابق هكذا مع مقولاته، مما يعني أن فكر الإنسان هو مركز الكون. ثم أراد «هيدغر» «وستروس» عبر فلسفة العلامات والبناء أن يضربا سياجا منيعا حول هذا الاعتقاد، غير أن الانقلاب الذي حصل بفضل (دريدا) انطلاقا من قراءة «هيدغر» فصلت بين الوجود والصيرورة، وبين التفكير والوعي، وبين الدّال والمدلول؛ مما يعني لا مركزية الفكر وتلاشي منطق القانون والهوية(٥٩).

كانت اللحظات الأولى لتأسيس فلسفة الاختلاف قائمة على ثنائيات متناقضة؛ وجود وعدم، حضور وغيّاب، مبدأ وفراغ، هوية وآخر، وقد بدا الفرق واضحا في محاولة «دريدا» عبر كتبه التوصّل إلى إثبات الآخر في بنية خارج البنيات، أو إلى إثبات فراغ لا يملأه حيّز، وإمكانية إقامة الوهم مكان اليقين، وقد أصبح بالفعل الوهم الذي بحثه دريدا من خلال الاختلاف قابلا للتداول الفلسفي والثقافي، قابلا للحوار في المحافل الفكرية، لا لشيء إلاّ لقوة وحجّة السفسطة التفكيكية، وإصرارها على مغادرة المركزية الغربية ومركزية اليقين، والتي يعتبرها فلاسفة التفكيك والاختلاف؛ مركزية بشرية خالصة خاضعة لعمليات الاستذهان وتركيب الوعي، المسكونة بالخيال والواقع والأسطورة والرغبة، فلا مناص من قبول فكرة غياب المعنى النهائي في السياق المعرفي.

وقد لاقت هذه الطروحات المتمنعة والمقاومة للمركزية والحاملة للواء الثورة الشاملة الجديدة؛ قبولا في شتى أنحاء العالم، وخاصة في أمريكا لدى نقاد جامعة ييل في الولايات المتحدة، إذ يعود الفضل إليهم في توسع المدرسة التفكيكية وتأصيل مقولاتها معرفيا ونشر فلسفتها أكاديميا وقدرتها على إعادة نمذجة العقل الغربي وفق منطق متجاوز للمركزية الحداثية؛ وخاصة لدى دي مان وهارتمان وسابير. ثم انضم كبار البنيويين الفرنسيين إليها، كالناقد الشهير رولان بارت والفيلسوفة جوليا كريستيفا وميشال فوكو... وغيرهم؛ حيث أصبحت عبر مساهماتهم المستمرة؛ المسيطرة على النقد ما بعد الحداثي في أمريكا بداية، ثم في معظم أوربا الغربية.

(٥٩) انظر مثلا في هذا الموضوع: محمد شوقي الزين، **تأويلات وتفكيكات: فصول في الفكر الغربي المعاصر**، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص١٨٨، وعادل عبدالله، التفكيكية، ص١٣-٢٢.

كما توسع التفكيك في عدة ميادين معرفية وعلمية؛ كالأرشيف والموسيقى والتاريخ...بدعوى تلمس الحقيقة أو المعاني المحدّدة في النصوص عبر استكشاف قوانينها وممارساتها التكميلية، وقد قرن مؤسسه جاك دريدا في كتابه:«نواقيس» **«Glas»**(٦٠) نصاً عن هيغل بنص عن الأديب «جينيه» ، وفي مقالة له بعنوان «جلسة مزدوجة» **«Double session»** يطابق نصاً عن مالارميه بنصّ عن أفلاطون، كأنها عملية تحقيق لمخطوطين، متن وحاشية، فيرفق نص الهوامش وشيفراتها أو إشاراتها وحدود انتشارها بشكل عام(٦١). وهو يشير إلى مثالية غير موجودة وغير نهائية عبر إثارة التساؤلات وفكّ الاشتباكات؛ بما يعني تكوثر العلامات التي تؤدي إلى دلالات غزيرة ومتتالية، وهو منتهى طموح التفكيك:"إن الاستنطاق يبعث الروح في جميع تساؤلات المعرفة، ولكنّه استنطاق من نوع آخر يختلف عن نوع التساؤلات، وهي عبارة تعني أنه عبر التماس معنى التساؤلات وأصلها؛ يميّز الاستنطاق نفسه عن العالم المرئي، فالاستنطاق يشتغل فيما سمّاه هيدغر الإنتاج، إن انبرام **(Interevining)** المرئي واللاّمرئي، وما يَرى وما يُرى، ويَلمس ويُلمس، ويَسمع و يُسمع، ويقول ويُقال، ويَفهم ويُفهَم، إن هذا الانبرام يقيم الفضاء المتقاطع الذي يحدث فيه الاستنطاق هنا؛ إذن يوفّر الاستنطاق حياة المعرفة، وهو ليس المعرفة) (٦٢).

(٦٠) سلفرمان ، **نصيات بين الهرمنيوطيقا والتفكيكية**، مرجع سابق، ص٧٩.

(٦١) المرجع نفسه، ص٧٩.

(٦٢) هيو سلفرمان، **المعنى والمرجع في فضاء الاختلاف**، جريدة الزمان، عدد ٨٦، تاريخ، ٢٠٠١/٣/١، ص٩.

مقالات

استغراب بلا اغتراب ولا غَرْبفُوبيا

الأستاذ الدكتور: عدنان المقراني

أستاذ الدراسات الإسلامية والعلاقات الإسلامية المسيحية لدى الجامعة البابوية الغريغورية، والمعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية في روما (إيطاليا)

مدخل

الإشكالية التي تطرحها هذه الدراسة هي:

- **هل يمكن التأسيس لعلم الاستغراب من دون أن يكون هذا العلم استشراقًا معكوسًا؟**
- **كيف يكون العلم متحرّرًا من أطماع الهيمنة وعُقَد القهر ومشاعر الكراهية والخوف؟**
- **ما هي الحدود الفاصلة بين العلم والأيديولوجيا في عالم معولم تداخلت فيه الثقافات وطويت فيه الحدود الجغرافية؟**

أطرح هذه الأسئلة من منظور أستاذ جامعي مسلم يدرّس الدراسات الإسلامية للطلبة المسيحيين في الجامعات البابوية الفاتيكانية، في عاصمة الكثلكة العالمية في روما. هذه التجربة الخاصة والاستثنائية قد تساعد في إلقاء أضواء جديدة على إمكانات تأسيس **علمٍ للاستغراب**. أدرّس منذ سنوات عديدة في مؤسستين جامعيتين هما:

➢ المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية **Pontifical Institute for Arabic and Islamic Studies**، وهو معهد متخصص في دراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية، ودراسة اللغة هنا موجّهة أساسا لفهم التراث الإسلامي في نصوصه الأصلية. وكنت ولا زلت أتساءل: متى يمكن إيجاد معاهد إسلامية عليا متخصصة في دراسة المسيحية الغربية من خلال لغاتها القديمة اليونانية واللاتينية ولغاتها الحديثة المتعدّدة؟، وذلك بإشراك أساتذة مسيحيين في تدريس اللاهوت المسيحي الغربي، مثلما يفعل المعهد البابوي في الجمع بين الرؤية الخارجية للأساتذة المسيحيين المختصين في الدراسات الإسلامية والرؤية الداخلية للأستاذة المسلمين.

➢ والمؤسسة الأكاديمية الثانية التي أدرّس بها؛ هي الجامعة البابوية الغريغورية **Pontifical Gregorian University**. وهي توفّر دروسًا مدخلية في الدراسات الإسلامية والأديان الأخرى باللغة الإيطالية، من قبل أستاذة مسيحيين ومسلمين، وذلك من دون المرور الإجباري باللغة العربية كما يفعل المعهد المذكور آنفا. ويوجد بهذه الجامعة مركز الكاردينال بيا للدراسات اليهودية **Cardinal Bea Centre for Judaic Studies** والذي يدرّس به أساتذة يهود من رجال دين (حاخامين) وعلمانيين.

لابد من الملاحظة في هذا السياق؛ أنه لا تمكن المطابقة بين الدراسات المسيحية ومشروع **علم الاستغراب**، لأنّ المسيحية في أصولها وفي جزء هام منها؛ هي ديانة شرقية، ووجود المسيحيين في العالم العربي وفي باقي العالم الإسلامي إنما هو وجود أصيل وقديم. ولدراسة المسيحية الشرقية لابد من الانفتاح على اللغات السامية مثل الآرامية والسريانية والجعزية (الحبشية القديمة)... الخ. والشيء نفسه ينطبق على الدراسات اليهودية. ولكن تبقى المسيحية واليهودية الغربيتان من الموضوعات الهامة في دراسة الثقافة الغربية، من دون حصر هذه الثقافة في بعدها الديني، فهي في جانب هام منها ثقافة علمانية أو لادينية بل ومتمرّدة على الدين أحيانًا.

للإجابة على التساؤلات المطروحة أعلاه، سوف أشرع في التحليل النقدي لبعض المفاهيم الأساسية، التي يمكن أن تمثّل عقبات، أو ربما فرصًا، لمشروع **علم الاستغراب**:

➢ **مفهوم الغرب.**

➢ **الصراع وإرادة الهيمنة.**

➢ **الإسلاموفوميا.**

مفهوم الغرب

الغرب –كمصطلح ومفهوم– ليس منتجا حضاريا عربيا إسلاميا، بل هو وافد في العصر الحديث عبر الترجمة من اللغات التي باتت تسمى باللغات «الغربية». فلقد عرفنا تاريخيا مصطلحات أخرى مثل «بلاد المغرب» و«الغرب الإسلامي»[1] للتعريف بمناطق تقع ضمن دائرة العالم الإسلامي. أما «الغرب» فهو مصطلح أنتجه «الغرب» ليعرّف به نفسه. وهنا موضع الالتباس، فالتعريفات الذاتية تختلط فيها الحقيقة مع الإسقاطات المتخيَّلة للذات. لذا يمكن تمييز عدة مستويات دلالية للمصطلح، لا يخلو كلّ واحد منها من التباسات واستثناءات:

الغرب – كمصطلح- ليس منتجا حضاريا إسلاميا، بل هو وافد عبر الترجمة أنتجه «الغرب» ليعرّف به نفسه

- الغرب بمعنى الحيّز الجغرافي.
- الغرب الجيوسياسي.
- الغرب الثقافي.
- الغرب كمعطى أسطوري (ميثي)، باعتباره أسطورة مؤسِّسة لهوية حضارية[2].

(١) انظر هشام جعيط، **تأسيس الغرب الإسلامي: القرن الأول والثاني هـ / السابع والثامن** م، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٤.

(٢)Georges Corm, L’Europe et le mythe de l’Occident, La construction d’une histoire, La Découverte, 2012

يمكن اعتبار مفهوم الغرب وسيلة لتأسيس هوية منفصلة ومختلفة إزاء الآخر، كنوع من التعريف بالنفي. وقد أخذ هذا الآخر أشكالاً مختلفة حسب المرحلة التاريخية:

الشرق المسيحي إزاء الغرب المسيحي، خاصة بعد انقسام الكنيسة في القرن الحادي عشر بين كنيسة أرثوذكسية يونانية شرقية وما دار في فلكها، وأخرى كاثوليكية لاتينية رومانية غربية، القسطنطينية أو روما الثانية إزاء روما الأولى.

الشرق الإسلامي في مقابل الغرب المسيحي، خاصة أثناء الحروب الصليبية. كما يدلّ على ذلك مصطلح **Saraceni** بالإيطالية، أو **Saracens** بالإنكليزية أو **Sarrasins** بالفرنسية، الذي كان يطلق على المسلمين وهو منحوت من الكلمة العربية ”شرقيون“. مع الملاحظة أن مصطلح ”حروب صليبية“ ليس مصطلحا عربيا إسلاميا، مثله مثل مصطلح ”الغرب“، بل هو وليد الترجمة الحديثة، لأنّ المؤرّخين العرب القدامى استخدموا مصطلحات أخرى، أشهرها ”حروب الفرنجة“؛ وهو مصطلحٌ محايد دينيًّا لأنّ مسيحيي الشرق قد عانوا أيضا من هذه الحروب.

مصطلح "حروب صليبية" ليس مصطلحا عربيا إسلاميا، بل هو وليد الترجمة الحديثة، لأنّ المؤرّخين العرب القدامى استخدموا مصطلحات أخرى، أشهرها "حروب الفرنجة"

الشرق المستعمَر "المتخلّف"، و"الساحر" أحيانا، إزاء الغرب المستعمِر "المتقدّم" "العقلاني" "الحديث". فالشرق هنا ليس المشرق أو الشرق الإسلامي فقط، بل هو ذلك العالم الفسيح الخاضع للهيمنة الاستعمارية الغربية الحديثة، بغض النظر عن الدين والمعتقد، فيقال ”الشرق الأدنى“ و”الشرق الأوسط“ و”الشرق الأقصى“، ومعيار قياس القرب والبعد في كلّ هذه الحالات هو ”الغرب“ أو بعبارة أدقّ أوروبا، فالمركزية الأوروبية بارزة في هذه المصطلحات ”الجغرافية“.

الشرق الشيوعي، الممثل بالاتحاد السوفييتي السابق وكل من دار في فلكه مثل أوروبا الشرقية، مقابل الغرب الرأسمالي الليبيرالي، الممثَّل أساسا بأوروبا الغربية وأميركا الشمالية وحلفائهما، خاصةً أثناء الحرب الباردة.

تعريف الذات بالتقابل مع الآخر؛ ملتبس بسبب تقلّب وتغيّر هذا الآخر في الزمان والمكان(٣). وما زاد الأمر التباسا هو علاقة التداخل، إن لم تكن التماهي أو الالتباس، بين مفهومين أريد لهما الترادف، وهما "**الغرب**" و"**الحداثة**"، أو لنقل "**الغرب**" و"**العالمية**"، حيث باتت الحدود بين ما هو غربي وما ليس كذلك أكثر غموضًا.

فالحداثة، في الفكر والعلم والمؤسسات؛ هي غربية وعالمية معًا، سواء أكانت تلك العالمية طوعيةً بالتبنّي والاقتناع، بغض النظر إن كانت القناعات نقدية انتقائية أم انبهارية، أم كانت قهريةً بالاغتصاب والجبر. بما في ذلك الفكر المناهض للحداثة، فهو في علاقته الجدلية معها حداثي بمعنى من المعاني، فالأصوليات الدينية هي نوع من الحداثات المعكوسة والمأزومة.

نادر جدا أن نجد اليوم فكرا إنسانيا لم يتفاعل مع الحداثة الغربية التي باتت "عالمية" من حيث الانتشار، وأيضا من حيث استفادتها من الثقافات والحضارات الأخرى. هذه العالمية هي ذروة مجد الحداثة الغربية، وهي في الوقت نفسه نهاية تلك الهوية التي لم يعد يمكن تحديدها بالتقابل إزاء آخر مختلف. فالعالمية المعولمة من باب المفارقة لا تهدّد فقط الهويات المغلوبة بل تهدّد أولاً الهوية الغالبة والمأزومة في عقر دارها. وسوف نرى لاحقًا أن "الإسلاموفوبيا" هي في بُعد من أبعادها صراع للهويات الغالبة والمغلوبة في عالم تذوب فيه الخصوصيات بسرعة تثير الهلع في ثقافات تسعى للبقاء.

من الناحيتين النظرية والعملية، مفهوم "الغرب" يطرح أسئلةً أكثر مما يقدّم أجوبة. ويتجلى ذلك من خلال عدة أمثلة تاريخية وجغرافية، فعلى سبيل المثال:

(٣) من الطريف أن مصطلحي "**شرق**" /"**غرب**" في التصوف الإسلامي يحملان دلالة روحية وجودية، فلكل مخلوق وجهان: وجه شرقي يمثل النور وهو سبب بقائه، ووجه غربي يمثل الظلمة والعدم. ولكن يبدو أن هذين المعنيين قد قلبا في الفهم الغربي فأصبح الشرق، وهو مطلع الشمس، مصدرا للظلمات والتهديدات والشرور. أو ربما يتعلق الأمر بمنطق الهوية التي ترى في ذاتها النور وفي غيرها الظلمة.

➤ على المستوى الثقافي، هل يمكن اعتبار اليونان جزءًا من الغرب أم من الشرق؟

فالتراث الفلسفي اليوناني يعتبر من ”أصول“ الحضارة الغربية، بالإضافة إلى القانون الروماني والتراث الديني اليهودي والمسيحي. كما يشكّل هذا التراث الفلسفي، في الوقت ذاته، أحد أعمدة التراث الحضاري الإسلامي. من يعرف اليونان الحديث؛ يدرك بوضوح مدى شرقيته على مستوى الموسيقى والفن والمطبخ والعادات، كثيرة هي السمات المشتركة بين اليونان وتركيا على الرغم من كل الصراعات التاريخية. هذا بالإضافة إلى كون الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية شرقية بحكم الانفصال الذي حدث إزاء الكنيسة الكاثوليكية الغربية.

➤ هل يمكن اعتبار أميركا "اللاتينية" جزءا من الغرب؟

قد تكون كذلك من الناحية الثقافية، بحكم غلبة اللغتين الإسبانية والبرتغالية، ولكن من الناحية الجيوسياسية، وخاصة في السنوات الأخيرة، الأمر يختلف. الغرب السياسي، إن صحّ التعبير، يمتد من أوروبا الغربية إلى أميركا الشمالية (الولايات المتحدة الأميركية وكندا)، كما يمكن إضافة أستراليا واليابان وكوريا الجنوبية. أما أميركا اللاتينية فمصالح معظم بلدانها متناقضة ومصالح أميركا الشمالية وخاصة الولايات المتحدة الأميركية. وعلى العكس من ذلك اليابان مثلا، فهي شرقية الثقافة ولكنها غربية الولاءات والتحالفات الجيوسياسية. ولكن الثقافة اليابانية الحديثة نفسها لا تخلو من تأثيرات غربية قوية تتجلى خاصة في جيل الشباب، رغم كل ما يقال عن ”النموذج“ الياباني في المواءمة بين الأصالة والمعاصرة، والمعاصرة هنا تعني غالبًا؛ التكيّف مع الحضارة الغربية.

➤ **حتى مفهوم الكنيسة الكاثوليكية، التي توصف بـ "الغربية"** بات يتحدّى مفهوم الغرب، حيث يوجد من الكاثوليك، في أميركا اللاتينية وإفريقيا وآسيا أكثر بكثير من أوروبا وأميركا الشمالية. وهذا على الرغم من إصرار البابا السابق بندكتس السادس عشر على مركزية وتأسيسية الفهم الأوروبي للمسيحية الغربية. بالإضافة إلى ردوده على اللاهوتات المتأتية من مناطق الأطراف، مثل لاهوت التحرير في أميركا اللاتينية، ولاهوت الأديان في الهند وآسيا عموما(٤).

➤ هل يمكن اعتبار مسلمي أوروبا غربيين أم لا؟

لا أتحدّث فقط عن مسلمي منطقة البلقان الذين يرجع وجودهم لقرون خلت، بل عن ملايين المسلمين في أوروبا عموما (ما يزيد عن ٤٠ مليون مسلم في الاتحاد الأوروبي)، الذين استوطنوا فيها واعتبروها موطنهم النهائي، وهم الآن من الأجيال الثالثة والرابعة، وقد تربوا ودرسوا في المدارس والجامعات الغربية. بل هناك من يتحدث اليوم عن «إسلام أوروبي»(٥).

---

(٤) لفهم المركزية الأوروبية في فكر يوسف راتسينغر Joseph Ratzinger، انظر محاضرته في جامعة ريغينسبورغ Regensburg سنة ٢٠٠٦. أما عن رده على لاهوت الأديان التعددي، انظر إعلان "دومينوس يسوس" Dominus Iesus سنة ٢٠٠٠، الذي صدر في عهد يوحنا بولس الثاني من قبل مجمع العقيدة والإيمان الذي كان يرأسه راتسنغر نفسه. لعله من المفيد المقارنة بين دعوى المركزية الأوروبية في الفكر الغربي، وبين المركزية العربية في الفكر الإسلامي، فهي مركزيات ماضية تجد صعوبات في الاستمرار نظرا للتغيرات الديمغرافية والثقافية. فاليوم الفكر الإسلامي في أندونيسيا والهند وإيران وتركيا، من دون الحديث عن الغرب نفسه، يعيش حيوية ونشاطا وحركة نشر سريعة لا يعرفها العالم العربي الغارق في مشاكله السياسية والاجتماعية.

(٥) انظر مثلا:

Tariq Ramadan, *Être musulman européen : Etude des sources islamiques à la lumière du contexte européen*, Tawhid, 2001

الصراع وإرادة الهيمنة

لا يمكن إنكار وجود «صراعات» مصلحية وتوسعية وسياسية واقتصادية، بل وعسكرية، بين أطراف في الغرب وأطراف أخرى في الشرق، وداخل كلّ معسكر منهما أيضا. والصراعات الداخلية تكون أحيانا أشد وطئا من الصراعات مع العدو الخارجي. ولكنها في أحيان كثيرة ناجمة عن خيارات استراتيجية وليست حتميات وجودية ميتافيزيقية، من هذا المنظور لا يمكن الحديث عن «حتمية» الصراع مع الغرب، صراع بين كتلتين ملتبستي الهوية والحدود.

أولا الصراع مع من، ولماذا؟

فالغرب فينا ونحن فيه!، والمسلمون الغربيون خير مثال على ذلك. وأقول هذا انطلاقا من تجربة حية لمسلم يعيش في إيطاليا منذ حوالي عشرين عاما. نحن نحيا في عالم يستحيل فيه العيش ضمن فرضية غياب الآخر، لا يمكن تجاهل الآخر، خاصة عندما يكون هذا الآخر قويا وغنيا، يقتحمك في عقر دارك وعبر كل قنوات التواصل والمعرفة.

وهذا صحيح، لا فقط بالنسبة للمعارف التقنية، بل يشمل أيضا الآداب والعلوم الإنسانية، بل إن أي مفكر مسلم جدي يعيش في الغرب أو حتى في العالم الإسلامي، لا يمكنه أن يفكر في دينه من دون الاستعانة بالدراسات الغربية، ولا أقصد هنا الفهارس الخاصة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، ولكن أيضا الدراسات الكثيرة المفيدة التي تُجرى في أكبر الجامعات الحديثة. بل يمكن القول إن المسلم لا يمكنه إلا أن يتفاعل مع العلوم الدينية المسيحية، مثل الدراسات الكتابية والهرمينوطيقية، ومثل الدراسات اللاهوتية الجديدة كلاهوت الأديان، إذا أراد أن يكون فكره بالفعل عالميا وليس مجرد فكر محلي ضيق يدّعي العالمية زورا وبهتانا.

والأمر نفسه ينطبق على المؤسسات السياسية والأنظمة الديمقراطية والمبادئ الدستورية، كالفصل بين السلطات، وحقوق الإنسان وغيرها... هناك مجال واسع للتعلّم من التجربة الغربية، على الرغم من أن بعض الدول الغربية لا تحترم دائما مبادئها ولا تطبقها على الجميع بنفس الدرجة، خاصة إذا تعلّق الأمر بمن يعيشون خارج حدودها.

هذا على الصعيد العلمي والثقافي والمؤسساتي الخ...

فماذا عن السياسات والمصالح؟

فلنأخذ على سبيل المثال؛ العدوان الإسرائيلي على غزة في أغسطس/آب ٢٠١٤. نظرة عجلى قد تؤكّد نظرية «الصراع مع الغرب» من خلال دعم دول أوروبا الغربية (خاصة فرنسا وألمانيا والمملكة المتحدة) والولايات المتحدة الأميركية لإسرائيل. ولكن المتمعّن في الأمر يجد أن خارطة الصراع أكثر تعقيدا من أي استقطاب ثنائي. داخل الدول الغربية هناك طيف واسع من المجتمع رفض العدوان وأدانه، كما تعالت أصوات يهودية داخل إسرائيل وخارجها لتتبرأ من المجازر الحاصلة في حقّ الشعب الفلسطيني. كما أن خارطة التحالفات تذهب أبعد من الحدود المعلنة للغرب.

داخل الدول الغربية هناك طيف واسع من المجتمع رفض العدوان وأدانه، كما تعالت أصوات يهودية داخل إسرائيل وخارجها لتتبرأ من المجازر الحاصلة في حقّ الشعب الفلسطيني

نعيش اليوم عالما زادته العولمة تعقيدا، فهو أبعد ما يكون عن الهويات المتجانسة المتقابلة، بل هو خليط تمتزج فيه الألوان والاتجاهات والآراء. وإذا كان هناك استقطاب في الحقيقة فهو بين الذين يؤمنون بالإنسان وقيمته وحقوقه ويعملون على ترسيخ قيم المساواة والعدالة والسلام، وبين الذين يسعون لتنفيذ خطط الهيمنة والتسلّط والإقصاء، وهؤلاء وأولئك موجودون في كلّ ملّة وفي كلّ بلاد من بلدان العالم شرقًا وغربًا.

الإسلاموفوبيا

❁ يمكن تحديد مصادر ومظاهر الإسلاموفوبيا في العناصر التالية:

➤ الإرث التاريخي للصراع السياسي؛ المتمثل أساسا في الفتوحات الإسلامية والحروب الصليبية والاستعمار الحديث... بغض النظر عن تقييم كل طرف لتاريخ الصراع. كلّ هذه الحروب والصراعات مثّل فيها المسلمون «الآخر» بامتياز، مما رسّخ فكرة مشوّهة عن الإسلام ونبيه وكتابه، ولا تزال آثار هذا التراث العدائي حاضرة. من دون أن ننسى، في الوقت ذاته، الأحكام المسبقة والأفكار الخاطئة التي لا تزال شائعة إلى اليوم بين المسلمين إزاء الغرب «المسيحي» حينا و«الملحد» حينا آخر، عن أديانه ونسائه وعاداته الخ... ففي مقابل **الإسلاموفوبيا**، نجد **الغربفوبيا** ونظريات المؤامرة والعداء بالجملة لكلّ ما هو غربي بتهمة أنه «صهيوني صليبي».

➤ هناك مجهودات حقيقية بذلت في العقود الأخيرة من أجل تجاوز المفاهيم الخاطئة عن الآخر من خلال الحوار بين الأديان والثقافات وجهود الجامعات والمعاهد ومراكز البحث، ولكن مثل هذا العمل لا ينتهي بأجل لأنّ الحاجة إليه دائمة، ولأنّ عملية التثقيف العام والتربية على السلام والحوار وقبول الآخر؛ تحتاج لجهود دؤوبة من خلال وسائل الإعلام والمناهج التربوية والتعليمية، حتى لا يبقى أهل الحوار مجرّد ناد نخبوي محدود التأثير، خاصة في ظروف الأزمات والحروب كالتي نعيشها اليوم.

➤ أدّت العولمة إلى إفقار التعدّدية الثقافية وإضعاف الهويات وإجبارها على التفاعل مع الثقافة المهيمنة عالميًّا (الثقافة الغربية). خوف تلك الهويات على نفسها من الانقراض؛ جعلها أحيانا عنيفة في الدفاع عن نفسها أو أشد انطوائية وعدوانية إزاء الهويات الأخرى.

➤ كما أدّت العولمة إلى إضعاف الدولة الحديثة في الغرب وخارجه، وأتبع ذلك بروز الأحزاب الشعبوية التي تستثمر في الخوف، وتزايد في التخويف من المهاجرين عمومًا والمسلمين خصوصًا من أجل ربح الأصوات في الحملات الانتخابية. المشكلة في العولمة أنها أضعفت المؤسسات الديمقراطية، لأنها تضع الثقل الأكبر في اتخاذ القرارات في يد جهات غير منتخَبة، كالشركات متعددة الجنسيات واللوبيات الخ...

➤ حاجة القوى العظمى إلى صناعة عدو يكون بديلا عن الخطر الشيوعي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة. وهي الأطروحة التي عبّر عنها بشكل واضح وصاغها بطريقة ''أكاديمية'' الأستاذ صمويل هانتنغتون تحت عنوان ''صراع الحضارات''(٦).

من أسباب الإسلامفوميا حاجة القوى العظمى إلى صناعة عدو يكون بديلا عن الخطر الشيوعي بعد انهيار الاتحاد السوفييتي ونهاية الحرب الباردة.

➤ الأوساط الأكثر جهلا بالإسلام واستثمارا في الإسلاموفوبيا؛ هي أطراف غير دينية عمومًا. ومن منطلق تجربتي الرومانية، يمكني التأكيد أن الأوساط الكاثوليكية، خاصة منها الأوساط الأكاديمية والرهبانيات الكبرى والحركات الرسولية المنفتحة (أخص بالذكر حركة الفوكولاري وجمعية سانت إيجيديو)، بحكم تركيبتها العالمية والتعددية، وبحكم تجارب أعضائها مع الثقافات المختلفة، وبحكم التربية المستمرة على الحوار والانفتاح، وكلها عوامل تحدّ من الانغلاق والتعصّب؛ لهي أوساط أكثر انفتاحا من بعض الأوساط العلمانية. هذا بطبيعة الحال، لا يمنع من وجود أفراد بل حركات دينية كاثوليكية ذات توجّهات أصولية إقصائية. فصراع الأجنحة، بين الصقور والحمائم، ليس أمرا مقتصرا على أهل السياسة.

➤ التعصب الحقيقي يتمثل فيما يسمى استهجانا في إيطاليا بـ «الملاحدة الأتقياء» **Atei devoti**، وهم فئة من الصحفيين وأشباه المثقفين يعلنون عن عدم إيمانهم بالدين عموما، وأحيانا يعتبرون أنفسهم كاثوليكيين من الناحية الثقافية الاجتماعية، ولكنهم يروّجون لكراهية المهاجرين المسلمين، معتبرين الإسلام مصدرا للخطر الإرهابي العالمي ونقيض الحضارة الغربية، واندماج المسلمين في المجتمعات الغربة يكاد يكون مستحيلا بالنسبة لهم. وترى بعض الاتجاهات العلمانية المتطرفة الحضورَ الإسلامي في الغرب عودة للديني إلى الفضاء العام، بعد أن أُقصي منه لقرون عديدة وحُشر في الدائرة الخاصة. مما يعني في نظرهم؛ عودة القرون الوسطى ومظاهر التديّن الغابر، أي عمليا؛ فشل العلمانية الأيديولوجية.

(٦) Samuel P. Huntington, the Clash of Civilizations and the Remaking of World Order, 1996 (many editions)

محاذير وتوصيات

➤ لا شكّ أن للجانب العاطفي للإنسان دورا كبيرا في تحديد سلوك ومصائر الأفراد والشعوب والعلاقات فيما بينها: الخوف، الأمل، الغضب، اليأس ... وهي حالات نفسية اجتماعية تتمخض عنها نتائج خطيرة. ولكن الظواهر الاجتماعية شديدة التعقيد، خاصة في عالمنا المعاصر، فلا يمكن اختزال الظاهرة الواحدة في عامل واحد، كعامل الخوف مثلا. فوراء تلك المشاعر، وربما بالتخفي وراءها، نجد مقاربات عقلانية مصلحية فئوية أو فردية. اختزال المشاكل في المشاعر يؤدي بنا إلى التبسيط المخلّ، وربما تعقيد تلك المشاكل أكثر بإنزالها من دائرة التحليل العقلاني إلى مستوى الأحشاء والانفعالات غير المنضبطة. هذا ما يؤثر بدوره على الحيادية والموضوعية النسبيتين للدراسة العلمية للآخر. استقلالية المؤسسات الأكاديمية عن تأثير المشاريع السياسية وعن الأجواء الإعلامية الملتهبة، أمر ضروري للنمو والمصداقية.

➤ يبدو لي أن بعضا من الناشطين في مجال محاربة الإسلاموفوبيا قد حاولوا إيجاد المقابل الإسلامي لمعاداة السامية في المجتمعات الغربية، أو ربما التعلم من التجربة اليهودية في هذا المجال والعمل على منوالها، سواء بإنشاء جمعيات ومراصد لمراقبة التجاوزات وتنبيه السلطات إليها وحشد الرأي ضدها، وتشكيل لوبيات أو جماعات ضغط من أجل استصدار القوانين اللازمة لمكافحة الظاهرة. والربط بين الإسلاموفوبيا ومعاداة السامية؛ بات يتكرر في عدة مناسبات للحوار الإسلامي اليهودي في الولايات المتحدة وكندا وأوروبا، كجبهة مشتركة تجمع المسلمين واليهود. وكل ذلك محمود ما لم يتحوّل إلى لعبة سياسية لتبرير ما لا يمكن تبريره، فتصبح مكافحة الإسلاموفوبيا؛ مكافحة لكل صوت ناقد لمظاهر التطرف والتخلّف بين المسلمين أو رفضا لانتقاد سياسات دول بعينها، مثلما باتت معاداة السامية مطية أحيانا لتبرير السياسات الإسرائيلية وجعل كل انتقاد لجرائم إسرائيل وكأنه شكل من أشكال معاداة السامية. النقد الذاتي ضروري لتطوير أداء المسلمين الغربيين وجعل حضورهم ومشاركتهم في الحياة العامة أكثر إيجابية وفعالية من دون استتباع أو استلحاق لأية جهة خارجية.

لابدّ من التحرّر من نظرية المؤامرة. هذا لا يعني عدم وجود مؤامرات، ولكنها تسقط على الآخر هالة من القوة والسيطرة والشر تفوق كثيرا الواقع، وتجعل من المقاومة عملية شبه مستحيلة

➤ لابدّ من التحرّر من نظرية المؤامرة. هذا لا يعني عدم وجود مؤامرات، ولكن نظرية المؤامرة تسقط على الآخر هالة من القوة والسيطرة والشر تفوق كثيرا الواقع، وتجعل من المقاومة عملية شبه مستحيلة؛ لأنها مجرّد ردة فعل عاطفية غير عقلانية وغير واقعية.

➤ من الأشكال التي تُعتبر أحيانا من باب الخطأ جزءا من الإسلاموفوبيا، هو اعتبار كل محاولة نقدية للفكر الإسلامي أو للتاريخ الإسلامي نوعا من التهجّم على الدين. بل أحيانا نتوقع من بعض المتخصّصين في الدراسات الإسلامية من غير المسلمين –أو من المسلمين بطريقة مختلفة عن التيار السائد– أن يأتوا بنتائج تتفق تماما مع مقتضيات العقيدة الإسلامية حسب فهمنا نحن لها.

➤ هناك نظريات وتفسيرات أكاديمية تتصف أحيانا بالجذرية في الطرح، وقد تشكّك في مصداقية تصوّر معين للتاريخ الإسلامي، هي في حقيقة الأمر تعبير عن الحرية الأكاديمية والفكرية انطلاقا من مسلمات ومناهج قد لا نقبلها كليا أو جزئيا. ليس من الضروري أن تكون تلك الأبحاث نتاج عداء للإسلام أو من "مؤامرات المستشرقين". إدخال هذا الصنف من الأبحاث ضمن ظاهرة الإسلاموفومبيا أو العداء للإسلام والتؤامر ضده قد يؤدّي إلى الحد من الحرية العلمية. علينا أن نكفّ عن الحكم على النوايا، ونردّ على البحث العلمي بالنقد العلمي الجدي. في رأيي، إن التجاوز في الحرية أفضل من التجاوز في الاستبداد والظلم والطغيان.

➤ ظاهرة الإسلاموفوبيا هي جزء من ظاهرة أهم وأعم، هي ظاهرة العنصرية والخوف من الأجنبي. فالعنصرية تصادف أحيانا أن تكون ضد المسلمين بسبب بروز الاختلاف أو التمسك بالعلامات الفارقة للهوية وبالحرص على الخصوصية. طالبت بعض الجهات في إيطاليا بتقليص الهجرة الإسلامية وتشجيع الهجرة المسيحية والكاثوليكية منها خاصة. ولكن المتمعن في الأمر يرى أن المعاملة التي يتلقاها المهاجرون غير المسلمين ليست أفضل من معاملة المسلمين، كأوضاع الغجر (وهم أوروبيون) وأوضاع الفليبينيين والأميركيين الجنوبيين... الخ. يأتي أحدهم وهو طبيب أو مهندس فيجد نفسه مجبرا على العمل في النظافة أو المطاعم؛ لأنّ شهاداته غير معترف بها، فعليه أن يدرس الطب من البداية مثلا. وحوادث الهجوم على الغجر متكررة، بما في ذلك حرق مخيماتهم وتشريدهم.

➤ إن وجود منظمات إسلامية نشطة في مجال مكافحة الإسلاموفوبيا؛ أمر مفهوم بل مطلوب، ولكنني شخصيا أفضل العمل على مكافحة العنصرية بجميع أشكالها الدينية والقومية واللغوية والجهوية والجنسية الخ... قد يكون العمل الجماعي المختلط والتعدّدي أجدى نفعا وفاعلية ومصداقية، لأنه يمثّل بصفة عملية الأطروحة المعاكسة تماما للأطروحة العنصرية أحادية اللون والتوجّه. يمكن كذلك للجمعيات الحقوقية والخيرية الإسلامية أن تعمل بشرط تكثيف تعاونها مع الجمعيات غير الإسلامية سواء أكانت دينية أو لا، وذلك قصد تجاوز القبلية الدينية والطائفية في مجال يتسع للجميع ويخدم الجميع من دون تفرقة أو تمييز.

بعد طرح هذه الإشكالات والتحديات، يمكننا التساؤل بحق وجدية عن موقع **علم الاستغراب** من خضم العلوم الإنسانية الحديثة، والعلوم الإسلامية التراثية؟، هل يمكن اعتبار كتاب "الاستشراق"، للمفكر الأميركي الفلسطيني الأصل **إدوارد سعيد**، بمثابة تأسيس ما لعلم الاستغراب، لأن الاستشراق علم غربي ودراسته تظهر لنا جوانب هامة من الفكر الغربي، فنظرتنا للآخر هي جزء من نظرتنا لأنفسنا ولموقع كل واحد منا في العالم. ولكن يبقى إدوارد سعيد نفسه مفترق طرق بين الشرق والغرب غير قابل للتصنيف بحدّية ودقة.

هل يمكن أيضا اعتبار أعمال المفكر الأميركي اليهودي اليساري **نعوم شومسكي** في نقد الرأسمالية الليبيرالية الغربية، جزءا من **علم الاستغراب**؟، هل يمكن إدراج تحت هذا الصنف كل الأعمال الغربية المعاصرة في النقد الذاتي، فيما بات يسمى بما بعد الحداثة، ضمن إطار **علم الاستغراب**؟، هل سبقنا الغرب في علم استغرابه؟، أم نحن شركاء على قدم المساواة مع مختلف المفكرين في أنحاء العالم من الغربيين وغيرهم في نقد تراث الإنسانية بجميع ألوانه، بالتمييز النسبي بين الموضوعي والأيديولوجي، والذي لا يتأتى إلا ضمن أكاديمية منفتحة وحرة وتعددية ترتوي من جميع المشارب. أليست هذه فرصة تتيحها العولمة من حيث تدري أو لا تدري؟، أو بالأحرى من حيث ندري أو لا ندري؟.

هل يمكن اعتبار أعمال إدوارد سعيد ونعوم شومسكي جزءا من علم الاستغراب؟ هل سبقنا الغرب في علم استغرابه

عندما تأسّست في السنوات الأخيرة في ألمانيا، بتمويل من الدولة، مجموعةٌ من المعاهد والمراكز الأكاديمية الإسلامية لتدريس العلوم الإسلامية من قبل أساتذة مسلمين وموجّهة للطلبة المسلمين، الذين سيدرّس جزء منهم الدين الإسلامي للتلاميذ المسلمين في المدارس الحكومية، ضمانةً لمبدأ تكافؤ الفرص في المجتمع الألماني؛ ثار جدل كبير حول جدوى هذه المعاهد، خاصة مع وجود معاهد استشراقية عريقة خدمت الدراسات الإسلامية منذ قرون. فكان الجواب هو ضرورة إيجاد رؤية إسلامية ألمانية أوروبية يشرف عليها المسلمون أنفسهم. وفي نهاية المطاف لم تجد هذه المعاهد الجديدة غضاضة في الاستعانة بجهود سابقاتها في حوار مثمر من منطلق الندية والشراكة المعرفية. إن كان هذا الأمر ينطبق على علوم الذات، فإنه يمكن توسيعه ليضمن معرفة الآخر، ولكن هذا الآخر لا يمكن معرفته إلا بمعيته وليس ضده أو من دونه، حتى تكون معارفنا متزنة ومنصفة وبعيدة عن الاستقطابات والتحزّبات في مجال يفترض فيه الإخلاص والتواضع ونكران الذات، كشروط أخلاقية دنيا للمعرفة عموما. فهل هذا ممكن؟.

مجلة علم الاستغراب

مجلة علمية محكمة تَصدر عن "مؤسسة وعي للدراسات والأبحاث"

تعنى بجميع شؤون الغرب من حيث هو كائن معرفي مؤثر